مجموعة قصصية
أحمد عويضة
زَهرة الشيخ
عشق
تويا

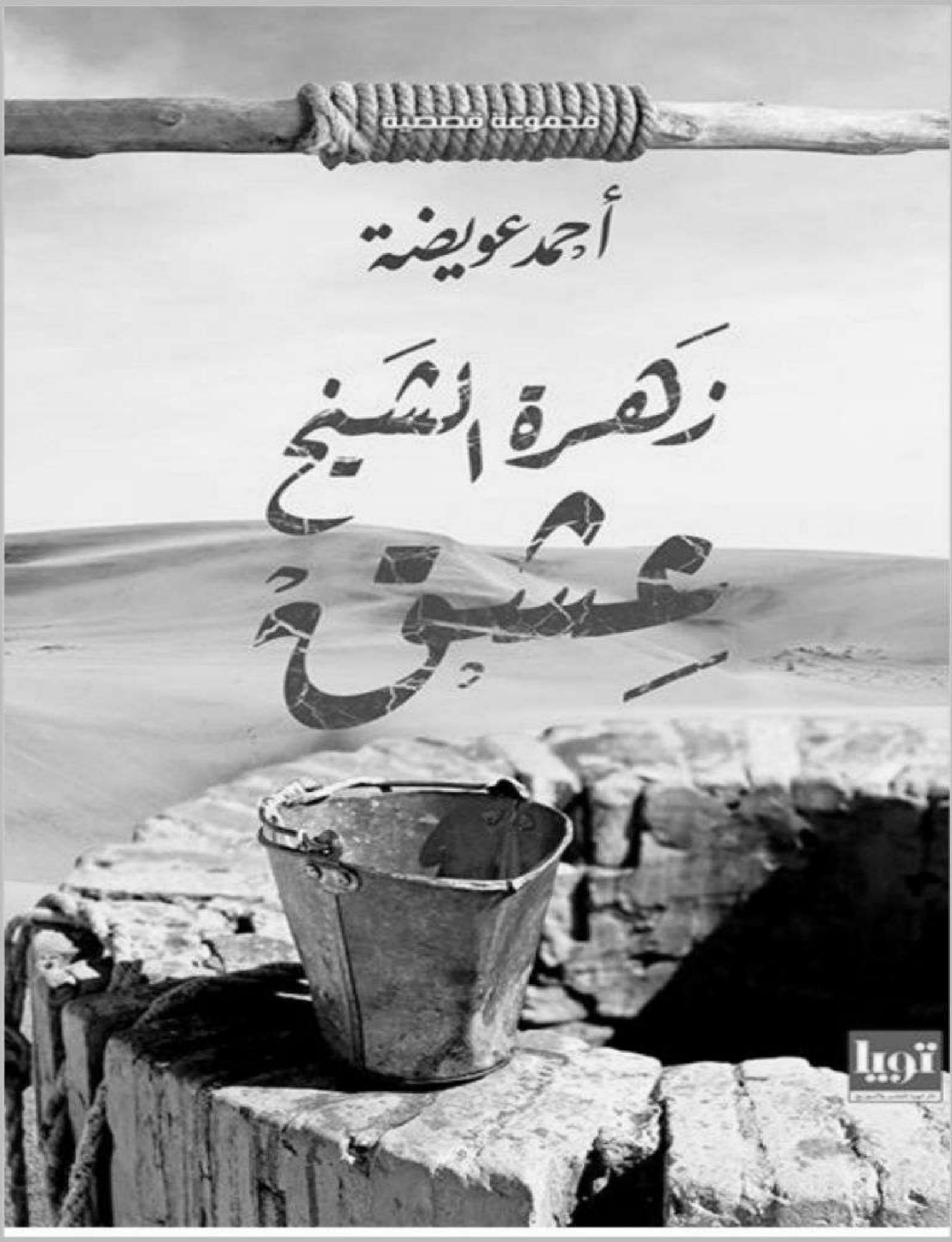

مجموعة قصصية
أحمد عويضة
زهرة الشيح
عشق

أحْمَد عُوِيضَة

زَهْرَةُ الشّيْخِ عِشْق

مَجْمُوعَةٌ قَصَصِيَّةٌ

إِلَى النُّورِ / النَّارِ الَّذِي مَرَّ بِي ذَاتَ يَوْمٍ.. فَأَنَارَ أَمَاكِنَ لَمْ أَكُنْ أَعْلمُ بِوُجُودِهَا يَوْمًا.

إِلَى النُّورِ / النَّارِ الَّذِي مَرَّ بِي يَوْمًا.. فَلَمْ أَعُدْ بَعْدَهُ كَمَا قَبْلَهُ.

إليّ أَنَا؛ الَّذِي لَمْ يَتْرُكِ النُّورَ / النَّارَ يَحْمِلُ مَعَهُ شَيْئًا مِنّي حِينَ رَحَلَ.

إِلَيْكُم:

د. إيمَان الدَّوَاخِلِي– آية الله أحمد– نَسْمة طارق– ياسين مُحيي الدين– هالة البشبيشي– شريف الليثي- ولاء بسيوني– عبد الرَّحمن الباز– صبرنا فضل– أحمد بخاتي– هنا هشام– موحا كامل– محمد فتيلينة- نداء الحلوجي– سارة عنتر.

لَوْلَا الأَشْبَاحُ..

على ضِفَّةِ النَّهْرِ، عودٌ يقفُ. إن نظرتَ له مَلِيًّا، لمحْتَ عينيْن تبرقانِ مِن قمريته، يَخْتَبِئ صَاحِبهما داخِلَه، مُحَاوِلًا خداع شارون حارس مملكة الموت، لينقلَه على متنِ طوفه إلى هيدز.

كان قد أرسلَ الكثيرَ من البرقياتِ بالحَمَامِ الزَّاجل إلى بلوتو- إله الموت- يطلبُ

منه ردَّ زوجتهِ إليه، ولكن دومًا دون ردٍّ.. لا تعودُ البرقياتُ، ولا الحمَائِمُ.

وأرسلَ العديدَ من الرسائل من هاتفهِ الجوَّالِ.. دون ردٍّ أيضًا.. ودون تقاريرَ استلامٍ.

تلوَّنت السَّماءُ بالأحمرِ المُتوهِّج، وقتَ وصولِ الطوف. قفز منه شارون، وسط الموتى المنتظرين على الشاطئ، يفحصُهم بإهمالٍ ليرى إن كان هناك مُخادعون. هل يرغبُ أحمق في الذهابِ إلى هيدز؟! يُراودُه هذا السؤالُ كلما نظر في وجوهِ الموتى الباردةِ. لا يُفكر في الإجابةِ، ويكتفي بتنفيذِ أوامر سيِّده. دار وسط الموتى، المُعلقة أبصارُهم بالضفةِ الأخرى.. لفت انتباهَه العودُ! سأل عن صاحبه، ولم يلقِ ردًّا، كرَّر سؤاله عدةَ مرَّاتٍ، كان حظها كسابقِها. أمسك العودَ، وتأمَّل في تدرُّج ألوانهِ البنيَّة، والمُنمنمات التي تُزيّن حوَّافه، ضرب بمخالبه على أوتاره المشدودة، فأنَّت بنشازٍ أعجبه. تلفّت حوله جيدًا، قبل أن يدسَّه في عباءته السوداء البالية، وانصرف عائدًا إلى طوفه يُغني، ويهشُّ بعصاه قطيعَ الأرواحِ أمامه. ودَّ ساكنُ العودِ لو خرج وصفعَه على قفاه لرداءةِ غنائهِ.

الفرحةُ تتقافزُ حولهما.. يقفزُ في الشارع، وينظرُ إليها، فيحمرُّ وجهُها من جنونهِ.. يُمسكُ يدَها، ويسحبُها كي يركضا معًا، فَتُمَسمِرُ قدميْها في الأرض. يضحك، ويزيد في شدِّه لها، حتى تُطاوعَه، فيركضان تسبقهما ضحكاتٌ، اهتزَّت لها الأشجارُ، وودَّ أسفلتُ الشارع لو يرقصُ مُتماوجًا، مع فرحةٍ نسي لونَها منذ عقودٍ.

أخيرًا، حصل على وظيفةٍ جيدةٍ، وبدأ أول طريقِ تحقيق حلمهما. توقفا. يلهث، وينظر إليها بفمهِ المفتوحِ على آخره، ويصرخُ:

"أخيرًا سيجمعُنا بيتٌ واحدٌ، وفراشٌ واحدٌ"

فتلكزه في كتفهِ ليستحي قليلًا. يردُّ على لكزتِها بضحكةٍ.. يقتربُ منها، ويزيدُ من مُجونهِ كي يحمرَّ وجهُها أكثر:

"لِمَ تضربينِي، أليس هذا ما تُريدين؟"

فتكتِم ضحكتَها، ويزدادُ الاحمرارُ، ويزدادُ العاشقُ عِشقًا. يقتربُ منها، ويطبع قُبلةً على خدِّها، فتلكزه بركبتها هذه المرة، وتتصنَّع الغضب.

وقبل أن يردَّ على غضبِها المُصطنع، يجد كفًّا تهوي على قفاه، مع صوتٍ يقول: "وحياة أمك أنت وهي؟ فاكرنا طراطير؟"

خبَّأ شارون العودَ في كوخه، قبل أن يذهبَ بالقطيع إلى سيِّده. خرج هو من العودِ، وحمله على ظهره، وانطلق يُحاول الاندساسَ وسط القطيع، ليدخلَ المملكة. لم يلتفت شارون له ولا لعُوده، كان مشغولًا بمغازلة سالومي، وهي ترقصُ عاريةً تحت أقدام هيرود. توقَّف هو أيضًا، وقد أثاره جسدُها اللدنُ. أثاره

اهتزازُ نهديْها، إلى درجةٍ جعلته لا يرى رأسَ يوحنا الملقاةَ بين ساقيْها، تتساقط عليه قطراتُ عَرقِها. قرفصَ، مُلقيًا العود جواره.. دبَّت الحياةُ في عينيْه، على الرغم من محاولاته أن يبدو ميتًا. لمعت جبهتُه بالعَرق. سقط على عينيْه، فأحرقها. شكر العرَقَ الذي أفاقه وأنقذه من سالومي وشارون.. قام يُحاول لملمةَ نفسهِ ليُكملَ رحلته.. "شكرًا للعرق، ولغباء شارون".

يركعُ أمام الضابط، تسبقُ دموعُه ركبتيْه. يُقسم أنهما لم يفعلا شيئًا.. هي خطيبته؛ تلك الخمرية التي تصرخُ الآن، وتُقسم أيضًا أن شيئًا لم يحدث. يسبُّها الضابط، ويأمرُها بالخرسِ، أو يضربها الجنديان القابضان عليها. فيستشيط هو، ولكنه يُغافل غضبَه ويبكي مُتوسلًا الضابط أن يتركهما، أو يتركها هي ويأخذه. يضحك الضابط منه، ويسبُّه بأبيه وأمه. يُحاول الشاب القيام، فيصرخُ فيه الضابطُ أن يظل كما هو. يركعُ، ويزيد ركوعُه، حتى يئنَّ أسفلتُ الشارع أسفًا عليه. تتجمَّع حولهما الأشباحُ التي كانت تسيرُ وشاهدت ما حدث. ولكنها أشباحٌ، لا تُنقذ ولا تُعين.

انتصابُ عينيْ الضابط يشِي بما به. شهوةٌ احتلته.. شهوةُ السادية؟ لجسد فتاته الخمرية؟ أم الخلخال الذي أهداه إليها في عيد مولدها؟ غبيٌّ هو؛ يومها حدَّثته نفسُه بأن الخلخال يُثير الشهوة. يأمر نفسَه بالخرس، وهو يُحاول أن يتفادى الرفساتِ والضحكاتِ، المتزايدة كلما زاد في بكائه وتوسُّله. يمدُّ الضابطُ يدَه، ويأمره بتقبيلِها، فيمدُّ الشاب فمه بعد ترددٍ كي ينفذ، فيصفعه الضابط ويضحك. يهبُّ الشاب واقفًا، فتتلقاه صفعةٌ أشد تهوي على قفاه، تصرخُ فتاتُه الخمريةُ، وتعودُ ركبتاه لضرب الأسفلت من جديدٍ. ينظر للأشباحِ حوله مستجديًا.. مسكين، ينتظر خيرًا من أمواتٍ!

"احتفظ بهذه الأرواحِ في المخازنِ، حتى نعرضَها على بلوتو"

هكذا قال لشارون الخازن هيدز، عدَّ الأرواحَ، وطابق عددها مع الإيصال ليُوقع بالاستلام، فوجدها تزيدُ واحدًا. أعاد العدَّ فتأكد. لم يُخبر شارون، وأضمر أن يجعلَ أحدُهم خادمًا له؛ فقد أرهقه ضغط العمل. عاد شارون مُسرعًا، ليُكمل تفرُّجه على رقصة سالومي المستمرة أبدًا، وبعدها يُفرغ شهوتَه، ويستريحُ باقي اليوم.

"إن كنتَ تُريد الذهابَ، فاخلعْ بنطلونك الآن!"

هكذا يبصقُها الضابطُ في وجههِ. تُسمَع "لا" يائسة، تنطلقُ من فم الفتاة الخمرية، فتخترق الأشجار، المتراصة تشاهدهم مع الأشباح. ترتعش الأشجار، وتتساقطُ أوراقها.. تتجمد نظراتُ الشاب على وجه الضابط، فتحرق جلده. يرفسُه الضابط، ويسبُّها ويسبُّه، ثم يقول "خذوهما"، فيصرخ الشاب موافقًا أن يخلعَ

بنطلونه.

لا تعلم إن كان صوتُ العويل الذي تسمعه صادرًا من الشاب أم الفتاة. يقف الشاب على ساقيْن ترغبان في السقوط، وتسقط الفتاة أرضًا تتمنى القيام لتمنعه. لا يدري إن كانت سخونةُ جسده غضبًا أم حُمَّى، وترتعش هي وقد شعرت أنها عاريةٌ مكسورةُ الظهر، تخترقها نظرات الناس كخوازيق ثلجية؛ تقتلها بردًا.. تتساقط عليها أوراقُ الأشجار لتداري عُريها.. ينظر حوله نظرةً أخيرةً للأشباحِ، يبصق، ويتمنى أن تطلي بصقته وجوههم جميعًا. تتشوش صورة الأشباحَ المحيطة به، ثم تنعدم الرؤية.. يفك حزامه وأزرار بنطلونه، ويخلعه.

"هل جاءتك منذ عدة أيام فتاةٌ خمريةٌ، ليليةُ العينين، ترتدي خلخالًا فضيًّا؟"

سمع الخازن السؤال، فانتفض مرتعبًا. الأموات لا يتكلمون هنا! خرج له الشاب، حاملًا عوده ودموعه وصورتها، يستجديه أن يساعدَه في إيجاد زوجته. لا يدري هل رقَّ قلبُ الخازن له، أم أن غضبه من بلوتو بسبب ضغط العمل هو ما جعله لا يفشي سرَّه. أخبره أنه لم تأتِ إليه أي زوجة منذ أسبوع. فقال الشاب بعد ترددٍ إنها بِكر. ضحك الخازن، ونظر لما بين فخذيْ الشاب، فأسرع الشاب ينفي عن نفسه التهمة، ويُخبره أنها خطيبته، ولكنه يعتبر زواجهما أمرًا حتميًّا.

بحث الخازن في الدفاتر، ولكنه لم يجدْ أي فتاةٍ بمواصفاتِ خطيبة الشاب.

يمشي تائه البصر، مُطفأ العينيْن، بجواره حبيبته ترغبُ في معانقةِ ذراعه؛ ولكنها لا تقدر.. روحان مكسورتان، لا تملك إحداهما الرغبة في لمِّ شظاياها أو شظايا الأخرى. يُوقف سيارة أجرة.. تركب الفتاة وهي تنتظر أن يركبَ إلى جوارها.. ولكنه يُغلق الباب، ويطلب من السائق إيصالها إلى بيتها، وينقدُه أُجرته. وقبل أن تعترضَ، يركضُ هربًا.

جلس في ركن المخزن، وقد اسودَّت عيناه من الهمِّ، فلحقت بروحه، لا يعرفُ كيف يتصرَّف. نفض عن رأسه فكرة أن يعود من حيث أتى. لا بديل عن البحث في أماكن أخرى؛ ولكن أين وهذه مملكة الموت الوحيدة في العالم؟.. أيكون بلوتو قد خدعه؟ ضمَّ عُوده إلى حضنه، يستدفئ به، ويطلب منه العون.. فأنَّ العودُ بنغماتٍ روحانيةٍ حزينةٍ تُخبره أنه لا جدوى.

تمرُّ أيامٌ دون أن يتصلَ بها حبيبُها. تقضيها محاولة لمِّ كسراتِ روحها. لا ترغب في الحديث، حتى مع أمها، فقط تدَّعي أنها تأكلُ معهم، وتدَّعي أنها تنام.. فقط تدَّعي.. وتدعو أن تفقد ذاكرتها. ولكن اليوم، هي ترغبُ في جبْر كسْر من كَسَرت ظهره. تتصل به، حتى يكلَّ منها الهاتف، دون ردٍّ.

تنطلقُ إلى بيته.. مفتاح بيته معها، وإن كانت لم تخطَ فوق أرضه من قبل.. فقط تملك المفتاح. تفتح الباب بحذرٍ. هي تعلم أنه يعيشُ وحده، ولكنها لا تستطيع أن تمنع خوفها من أن يراها أحدٌ. تقف على باب الشقة، وتتصل به. تسمع صوت رنين الهاتف يأتي من إحدى الغُرف. تدخل الغرفة.. وتشقُّ جدران البيت صرخةٌ مفجوعةٌ.

عُوده يحمله، هذا هو الوصفُ الأنسب..

العودُ مُرتفعٌ في سماء الحجرة. والشابُ مُعلقٌ بأوتاره الملفوفة حول رقبته. وعلى كتف الشاب، يجلس طفلٌ جميلٌ يأكل العسلية ويضحك. تركض نحوه لتُنزله، علَّه لا يزال حيًّا. ولكن الطفل يقفزُ نحوها كاشفًا عن أنيابهِ، فيتخلى عنها وعيها بعد أن يفيضَ به.

عدة أيامٍ لم يعرف شيئًا عنها. لا يجرؤ على الاتصال، بعدما كُسر ظهرُه أمامها. تظل أصابعه تقاومه وهو يُحاول أن يطلبها. يتغلّب عليها، يضع سماعة الهاتف على أذنه، فتنقل له صوت أمها باكيةً من الجانب الآخر، تُهمهم بكلامٍ غير مفهوم. لم يحتج لتفسيرِ كلامها ليُدرك ما حدث.

على ضفةِ النهر، وقف عودٌ مُقطَّع الأوتار.. إن نظرتَ له مليًّا، لمحت عينيْن تبرقان من قمريته. تختبئ صاحبتهما داخله،محاولةً خداع شارون حارس المملكة، لينقلها على متن طوفه إلى هيدز. أرسلت الكثير من البرقيات بالحمَام الزاجل إلى بلوتو إله الموت؛ تطلب منه ردَّ حبيبها إليها، ولكن دومًا دون ردٍّ.. لا تعودُ البرقياتُ ولا الحمائم.

وأرسلت العديد من الرسائلِ من هاتفها الجوَّال، دون ردٍّ أيضًا ودون تقارير استلام.

2016 / 02 / 18

شَجَرَةَ عَجُوز

ملأت المقعد عندما جلست عليه في استراحةِ المستشفى منتظرةً سماع اسمها. أنَّ المقعدُ المُتهالكُ تحتهَا، فابتسمت، كأنها تربتُ عليه معتذرةً.

ربتتْ على فخذِ الجالسةِ بجوارها، وسألتها عن سبب وجودِها..

" أنتظرُ دوري للدخول يا خالتي، شرخين وبواسير"،

تبتسمُ العجوزُ وتردُّ: "لا تخافي يا ابنتي.. ابنتي قامت بنفس الجراحة منذ عدة سنواتٍ، وهي الآن متزوجةٌ ولديها طفلان" .

تدورُ بعينيْها وبأسئلتها على الجالسين، عن أسباب وجودهم.. تُخبرهم عمَّن قام بنفس الجراحة، وخرج منها سليمًا وعاش في "تبات ونبات"، دائمًا لديها شبيهٌ لكلٍّ منهم، تحكي له تجربته، وتبثُّه أمانًا تظن أنه سيُعيد إنبات أوراقها!..

هي شجرةٌ عجوزٌ، جرَّدها الخريفُ فمنحتها بنية الأغصان بهاءً مُختلفًا عن خضرة الورق. تتلفتُ حولها، وتنشرُ أغصانَها لتقي الجالسين حرَّ القلق، أو فلنقلْ تمدُّ للغارقين في القلق غصون الأمل.

" ألم يأتِ معك أحدٌ يا خالتي؟"

تراها بخيالك، وهي تجلسُ في منزلها وحدَها، تُعدُّ كوب الشاي قليل السكر، وتجلسُ لتشاهدَ فيلمًا أو برنامج طهو، قتلًا للوقت. تتخيلها وهي في بعض الأحيان ترفع صوت التلفزيون، ثم تتركه لتوضيب البيت، فقط لتشعرَ بأن هناك صوتًا يُؤنسها.ها هي ذي تقطعُ سُكونها الطويل بحركةِ ذراعها، يأخذ الهاتف من فوق المنضدةِ الصغيرةِ المجاورةِ لفراشِها، وتتصلُ بأحدِ أبنائها، فيردُّ بسرعةٍ مُعتذرًا عن تقصيرهِ معها طوال الفترة الأخيرة، فيبتسم صوتُها وهي تُطالبه بألا يشعرَ بالذنب، فهي بخيرٍ ولا ينقصها سوى الاطمئنانِ عليه وعلى أحفادها. بعد أن تنهي المكالمة، تنظرُ لصورة زوجها الراحل وتُحدثه: "عيالك مطحونين يا أبو العيال، ادعْ لهم "

تعودُ إلى حيث تنتظر مُودعًا خيالك، فتجد العجوز تحكي عن جراحة قلبٍ مفتوح، أجريت لأحد إخوتها، وكيف قام بعدها مثل الحصان، وعاش في "تبات ونبات" كالعادة. بعدها تصمتُ، ويبدو أن الثرثرة أرهقتها.. ولكنك تنظر لعينيْها، فترى أن هذا ليس صحيحًا.

تُرجِع رأسَها إلى الوراء، وتُعلقُ عينيْها بالسقف، ثم تخترقه مُسافرةً إلى أراضٍ بعيدةٍ بُعد خيالها عن متناولك. أو ربما حتى هي أراضٍ لم تُوجد أبدًا. تتخيل ما الذي قد تشرد فيه العجوز صاحبة اللسان القادر على كلِّ هذه الثرثرة السابقة.. ربما هي الآن ترى نفسَها تضحك بدلالٍ، وزوجها يُغازلها تحت سمع وبصر الشمس.. تلكزه، فيضحك ويقبِّلها، فتسقط بينهما ثمرةٌ من الشجرة مع كل

قَبلةٍ، وتنفرجُ الثمرة عن طفلٍ يُشبههما. تضحك جزلةً.. وتحملُ طفلها وتُهدهده، فيتصنَّع زوجها الغضب، فتنظرُ له معاتبةً وتقولُ بدلالٍ: "لو كنتَ صغيرًا لهدهدتك أكثر منه، ولكنني الصغيرة، فيجب أن تُهدهدني". فيضحك الزوج، وينقضُّ عليها مُقّبلًا، ويحملها بين ذراعيْه كالطفلة، ويدورُ بها. وتضحك الشمس، وتُسقِط الشجرةُ المزيدَ من الثمار، فتقع كلها على رأسيْهما، فيصيبهما الدوار، ويسقط زوجها أرضًا، وهي فوقه تُحاول الضحك.

يتغير وجهُك وأنت ترى ألوانهما تشحبُ، بينما تزدادُ ألوانُ الأطفال لمعانًا ونضارةً. يلجآن للشجرة الكبيرة، التي بدأت أوراقُها في الذبول، ويطلبان العوْن والبركة، فتنظر لهما الشجرةُ مُتحسرةً، ثم تنظرُ إلى أوراقها الذابلة التي ضربها الخريفُ فتساقطت، والأغصان العظيمة التي جفَّت، ولا تنطقُ بكلمةٍ.

يشحبُ الأب تمامًا، حتى يصيرَ تمييزُ شكله أصعب من العثور على شبحٍ في غرفةٍ زجاجيةٍ.. والأم تُقاوم، كي تظلَّ حدودُها مميزةً لأطفالها، يستظلون تحتها، ويحتمون من شمسٍ، لا تعرفُ هي لِمَ غضبتْ عليهم!

إلى أن يتحرَّكَ كلٌّ منهم إلى صورةٍ أخرى.. يُقيم فيها شجرةً فاتنةً.. فتنامُ الأم في صورتِها، وتستسلمُ مُستمتعةً للشحوب.

" ألم يأتِ أحدٌ معك يا أمي؟ "

يقولها شابٌّ أتى لإجراء جراحةٍ بسيطةٍ.

تعودُ من سفرك على صوتهِ، ولا تعودُ هي من سفرِها إلا بعد أن كرَّر سؤاله عدة مراتٍ؛ لتُخبره أن أولادها مشغولون، وهي لا تريد أن تُخبرهم كي لا يجزعوا.

يصمتُ الشاب وقد أضمر أن يكونَ مرافقها، كي يقضي لها حوائجها. وتقوم أنت من مقعدك، لتنتقلَ بجوارها، لتعرفَ بما تتمتم، متحججًا- دون أن يسألك أحدٌ- بأنك تريد مقبس الكهرباء بجوارها حتى تشحنَ جوَّالك. تسمع منها كلماتٍ مُتقطعةً، لا تفهم منها سوى أنها دعاء تستمر في ترديدِه حتى يُنادي المُنادي باسمها، فتنتفض، وترتسم أماراتُ الخوف على مُحيَّاها البشوش. تفتح جوَّالها، وتنظرُ فيه للحظاتٍ، ثم ترميه في حقيبتها مرةً أخرى. تنهض، فينهض معها الشاب، فتنهض أنت أيضًا وتخبرُ الشاب أنك من سترافقُ العجوز. ويُحاول هو أن يُثنيك ويستأثر برفقتها، فتغلبه بأنك تنتظر مع صديق، بينما هو قد ينادون رقمه إلى الطبيب الآخر أثناء انشغاله معها. لا تنتبه أنت ولا الشاب لدموع العجوز التي تحجَّرت في مقلتيْها، لا يمنعها من النزول سوى كبرياء لم تغتلها السنون. يرضخُ الشاب لمنطقك، وتستندُ العجوزُ على ذراعك حتى تصلَ لباب الدخول، ويسيرُ الشاب معكما مُشجعًا، فيستوقفكما الحارسُ: "الدخول لمرافقٍ واحدٍ فقط". قبل أن ينسحبَ الشاب الثاني، وقبل أن ترد أنت على الحارس، تتركَ العجوز ذراعك وتقول: "أنا وحدي. هذان الشابان الطيبان يُعاوناني على الوصول للباب فقط". تتسمَّر أنت والشاب من تصرُّف العجوز، وتعبر هي الباب، وتجلسُ على الكرسي

المتحرك. تدفع الممرضة الكرسي عليه الشجرة التي تنظرُ لك وللشاب بعينيْن تلمعان بالدموع، تحتهما ثغرٌ باسمٌ يدعو: "يا رب لا تحوجني لأحدٍ" .

2015 / 11 / 07

لَوْنُ الزَّيْتُونِ

وبعد أن رآها.. وبعد أن ظنَّ أنها رأته.. فرد الطاولة على رصيف قطارٍ، في مهبِّ رياحٍ متقلبةِ الأهواء.

أمسك مضربَه، وأعطاها مضربًا آخر، ليلعبا.

قاد هو البداية، وأرسل الكُرة. فردَّت الريحُ على إرساله، وأرسلت الكرة يسارًا. ضحكتْ لسذاجته / فرحةً بمحاولته، وفسَّر ضحكها كما راق له، فابتسمتْ عيناه..

نظر حوله مُتفقدًا الرصيف، الخاوي إلا من بضعة تماثيل واقفةٍ وأخرى مُتحلقةٍ حول مائدةٍ، وأشجارٍ تطايرت أوراقُها، تتشبث بالأرض مقاومةً صفعاتِ الرياح. حبس كميةً من الهواء داخل رئتيْه الواهنتيْن بفعل التدخين، ليركز في التصويب، وانتظر لحظةً تغفل فيها الرياح عنهما. أطلق الهواء المحبوسَ وهو يُرسل الكُرة، فسعل، فطاشت منه. قهقه.. وردَّدت التماثيلُ قهقهته ساخرةً منه. التفت إليها، فوجدَها جامدةً، فَعَلت قهقهته لتغلب خوفه، وعلت معها قهقهة التماثيل، فهبط تحت الطاولة مُقرفصًا، وكأنما بفعل الضحك.

انتهت إرسالاتُه الخمسة الأولى، دون أن يُحرزَ أيَّ نقطة. ترك الطاولة، وجلس تحت تمثالٍ قريبٍ، مُنكسًا رأسَه، يُغالِب عينيْه كي لا تنسكبَ منها نظراتُ الهزيمة.

أتته مُبتسمةً، ومدَّت يدها.. لامعة العينيْن قالت: "دوري.. أرني مهارتك". لامست أصابعُه أصابعَها وهو يُناولها الكُرة، فانتفضت روحُه، وأعلنت تمرُّدَها على جسدِه.

قام، واتَّجه إلى مكانهِ حول الطاولةِ. تحفَّز لردِّ إرسالِها.. عادا للعب بعد محاولاتٍ عدة.. أرسلت الكُرة، فاستقبلها وأعادها، ولكنَّ الرياحَ أحرجته مرةً أخرى.

"احذرْ.. فهذه الفرصةُ الأخيرةُ"

همَّتْ بضربِ الكَرة.. وحبسَ أنفاسَه.. ولكنها تراجعت، واتَّجهت إلى أحدِ المقاعد وجلست.

هرع مُلتاعًا ليعرفَ ما بها، فوجدَ وجهَهَا جامدًا كما عهدهِ.. وجْه لاعب بوكر تربَّى في ملاعب لاس فيجاس. دار حولها، وسأل التماثيل؛ علَّه فعل ما أغضبها، فيعتذر! فبادلته التماثيلُ بنظراتٍ حائرةٍ.. ألحَّ في سؤالها عمَّا حدث، فأخبرته أنها لا تُحب هذه الطاولة، وتريد تغييرها.. لونُها الزيتوني يجثمُ على روحِها ويخنقُها.

غاص في أعماق عينيْها الزيتونيتين. أخبرها أن الزيتون هو لونُ السلام، الذي تبثه روحُها، وينعكس من عينيْها على روحه، فتسكب بردًا يرويها. طاف داخلها بحثًا عن طاولةٍ بلونٍ آخر تُحبه.. ربما لون البحر المتقلب مثلها، أوالنار التي تستعر في أعماقه كلما وجدها حزينة.. فلم يجدْ سوى لون الزيتون. هزَّ رأسَه يائسًا، فمطَّت شفتيْها وقالت: "حسنًا.. سأجرِّب لأجلك".

دارى ابتسامته التي وسعت روحه، ووقف مُستعدًّا لتلقِّي الكرة.

وقفت.. همَّت وتراجعت. طلبت منه أن يعزفَ لحنًا على الناي. حاول أن يُلبِّي طلبها، ولكن الريح أبت أن تدع نغمةً واحدةً تخرجُ من الناي كما يريد. حاول وحاول.. حتى صرخ غاضبًا، وألقى الناي بطول ذراعه، وأتبعه ببصقةٍ.. فعاد الناي سابقًا البصقة، ليلتصقا بوجههِ.

جلس تحت شجرة الزيتون العجوز يرتعش. وهرعت هي إليه تربتُ على كتفه، تُمازحه، وتحثُّه على إكمال المباراة. سكنت عيناه في عينيْها، مُحاولًا تهدئة الرياح التي انتقلت داخله، لتُزعزع كل إيمانٍ وقرَ في قلبه. ابتسم لها، وقال: "فلنكمل!.. سألعب حتى ينكسرَ المضرب، أو تنفد الكُرات".

عصرت أصابعُه مقبض المضرب، باعد بين ساقيْه وأحنى ظهره قليلًا.. أرسلت، فاستقبل وأعاد، فاستقبلت، وأرسلت ابتسامتها بدلًا من الكُرة.

صرخ وقهقه، فَرَد ذراعيْه وارتكز على قدمٍ واحدةٍ، ودار حول نفسهِ كراقص باليه، حتى وقع ضاحكًا. ولم يكد يستقرُّ أرضًا، حتى وقفَ وركضَ حول الطاولة يُغني..

أتى قطارٌ ضلَّ سبيله إلى رصيفِ المحطة المهجورة، فغطَّى بضوضائه على الغناء.. توقَّف القطارُ لحظاتٍ، استحوذ خلالها على انتباههِ. وما أن تحرَّك، حتى التفت إليها.. ولم يجدها!.. نظر إلى القطار، الذي يُسرع الخُطى ليلحقَ موعدًا لا يعلمه، فوجدها تنظرُ إليه من بابِ العربة الأخيرة. ركض وراءها يصرخُ ويبكي.. يصرخُ في التماثيل، آمرًا أن تلحقه.. يصرخُ في الرياح راجيًا أن تتصلَّب أمام القطار، ولا تسمحُ له باختراقها. تقطعت أنفاسُه من الركض والصراخ، حتى انكفأ على وجههِ، فغاصت ملامحُه، وحلَّ محلها الناي والبصقة.

2015 / 09 / 10

بروميثيوس يبكي ويضحك

وفي الحكاياتِ القديمةِ أسطورةٌ تحكي عن آلهةِ الإغريق.. وفي الحكاية، أتى اثنان من الحُكماء الفتيان لحضرة كبير الآلهة زيوس..

"أي زيوس.. لقد استنفد أبيمثيوس كل الموارد التي أتحتها لنا، فأعطاها كلها للحيوانات"

كان برومثيوس يُحدث زيوس بهذا وهو يبكي غيظًا، وجواره أخوه أبيميثيوس يضحكُ ويُخرج له لسانَه.

لم ينظر زيوس لهما، بل نظرَ في عينيْ حوريته الجديدة التي أهدته إياها أفروديت. نزلت عيناه عن عينيْها، إلى صدرها، وتساءل أي التفاح يأكلُ الآن، ذلك الذي في الطبق أم العاجي النافر أمام عينيْه؟ كرَّر برومثيوس شكواه مُلحًّا، فالتفت له زيوس مُغتاظًا، وأخبره أنه لا موارد أخرى لهما، فقد منحهما هِبَته كاملةً. حاول برومثيوس أن يُجادلَ زيوس، ويثبت له أن أخاه كان يغشّ، ولكن زيوس ما كان يهتم بغشّ أخيه، وقد انصرف عنهما وعاد للتركيز مع حوريته وتفاحها. استأذن برومثيوس في الانصراف، وهو يُفكر في شأن البشر المُكلَّف بتشكيلِهم، وخلفه تهزُّ ضحكة زيوس جدران قصر الأوليمب، تُرافقها ضحكاتُ الحورية تتغنَّج راضيةً.

امتدت السلسلتان بين جبليْن من جبال القوقاز، مُعلِقةً برومثيوس في الهواء، ساكنًا كالأمواتِ ينتظرُ..

اهتزت السَّماءُ تحت خفقاتِ أجنحة العقاب، وهو يندفعُ نحوه يزعقُ، مُؤذنًا بانتهاءِ انتظارِه لهذا اليوم. تسارع تنفُّسه حتى أرهقَ رئتيْه، وتكوَّرت قطراتُ العَرَقِ على وجههِ المُصْفَرّ. أغمض عينيْه بشدةٍ، استعدادًا لجرعة الألم اليومية.

قبل أن ينغرسَ منقار العقابِ في كبده، صدح صوتٌ يعرفه برومثيوس جيدًا.. فاتنة.. تلك السمراء التي هام بها وعُلِّق هنا بسببِ هيامه.

كأعذبِ ما تكونُ الملائكةُ أنشدتْ:

يبكي ويضحكُ لا حُزنًا ولا فرحًا كعاشقٍ خطّ سطرًا في الهوى ومحا
من بسمة النجم ه‍مسٌ في قصائ‍دِه ومن مخ‍الس‍ةِ الظب‍ي ال‍ذي س‍نحَ

قلــبٌ تمرَّس باللـذات وهو فتى كـبرعـمٍ لمسـته الريح، فانفتــحَ

ثملت روحُه من خمرِ صوتِها، فلم يعد يشعرُ بألمٍ. عاد وجهُه إلى التورُّد، وتقوَّست شفتاه في ابتسامةٍ رائقةٍ مُنتشيةٍ، ومنقار العقاب ينغرسُ في بطنه ليلتهم كبده، تنفيذًا لحُكم كبير الآلهة، الذي لا يُجيد سوى اختراع فنون العقاب المبتكرة.

مستوية كانت فاتنة على شاطئ عين الماء المُحاط بتلال الشام؛ مستعمرتها الخاصة التي لا يطؤها بشرٌ قط. في كامل عُريها وبهائِها، اعتدلت تُداعب جسدَها الخمري بلمعةِ البرونز، وتُدلكه لتنظفَه من مشقة حصاد الزيتون.

وقفت، وفردتْ ذراعيْها داعيةً الرياح.. فلبَّت الرياحُ على عجلٍ، تُقبِّل كلَّ ما تطوله منها. اتسعت ابتسامةٌ فاتنةٌ، وتحوَّلت لضحكاتٍ مائعةٍ، وهي تستمتعُ بلمساتِ الهواء التي تُداعب كلَّ جُسدِها، قبل أن تقفزَ في العين.

وقف بروميثيوس خلف قمة التل، يُحاول أن يمنعَ عينيْه عن القفزِ افتتانًا بصنع يديْه. ليست المرة الأولى التي يُراقبها وهي تسبح في الماء كأنها منه.. يحتضنُها الماء بحبٍّ وشبقٍ، فتتمايلُ وتتقلبُ مُتدلِّلةً عليه، فيحضنها مرةً أخرى. ولكن تكرار المراقبةِ لم يزده إلا هيامًا بها وغيرةً من الماء والرياح. المرة الأولى كانت صدفةً، وهو آنذاك ذاهبٌ إلى خلوة عشتار، ليراقبَ أنوثتها التي تُقسم بها الآلهة. واستوقفته فاتنة.. عندها عرف أن الأنوثة ليست حكرًا على عشتار، وعرف أيضًا كيف يخفقُ القلبُ لأنثى.

"كيف استطعتُ أن أُشكل كل هذه الفتنة الطاغية؟"

لا يكفُّ هذا السؤال عن ضربِ رأسِه كلما رآها. يقولُ لنفسِه إنها طفرةٌ، فهو لم يخلق مثل هذا الجمال. ولكنها عشتار التي نفخت قبسًا من أنوثتها في جدَّةٍ فاتنةٍ، عندما هربت من بلادِ الأوليمب إلى بلادِها، وانتقل القبسُ وزاد حتى وصل لفاتنةٍ.

ظل يُراقبها، وكاد يهبطُ إليها، فكبَّل تردُّده قدميْه ككلِّ مرةٍ، فاغتاظ، وهبط من القمةِ قفزًا ليحسمَ الأمر. حطَّ على صخرةٍ عند شاطئ العين، بين فاتنةٍ وثيابها، وجلس مُنتظرًا.

شعرت فاتنةُ بأن هناك عينيْن تراقبانها، فالتفتت إلى مكان ثيابها، فوجدت بروميثيوس حائلًا دونها. أجفلت، وغمرت كلَّ جسدِها في الماء ولم يبق ظاهرًا إلا رأسُها. صرخت فيه أن يبتعدَ عن خلوتها، ولكنه ظلَّ صامتًا ينظرُ لها بافتتانٍ..

انتقلت عدواه إليها، ابتسمت، وهي تتأملُ ملاحةَ وجهَه وجسدِه الممشوق، وسألته عن اسمهِ، استغربت وقع الاسم في أذنها. أعاده عليها عدة مرَّاتٍ حتى ألفته، ثم طلبت منه بدلالٍ أن يتأخرَ عن مكانهِ ويُدير ظهرَه، ريثما تخرجُ وترتدي ثيابهَا وتُجالسه.. فأطاعها. في داخل الماء قامت، تُغطِّي نهديْها المهتزَّيْن من هرولتها بشَعْرها ويدِها، ويدُها الأخرى تُغطي ما بين فخذيْها، حتى وصلت إلى ثيابِها، وارتدتها على عجلٍ.. وسبَّته وركضت هاربةً.

ممراتُ قصْر الأوليمب متشابكةٌ كغابةٍ من الأغصانِ الجافة، في وسطها تكمنُ غُرفة السرِّ، يضحكُ برومثيوس وهو يسيرُ فيها، يتذكَّر كيف حاول زيوس أن يكون ذكيًّا فاستعان بالمصري إمحوتب، وهو يظنُّ ألَّا أحد يعرفُ طريق الغرفة سواهما، ونسي أن آثار أقدامه تُحدد أيَّ الممرات هو الصحيح. دخل الغرفة، وسرق بعض القناني، التي تحتوي فنون العمارةِ والعقل والتكيُّف، سكب السوائل على ما بقي معه من طينٍ دون أن يدري أحدٌ.

جُنَّ زيوس عندما شاهد البشر يتغلبون على الحيوانات ويتسيَّدون الأرض. لم يفهم كيف حدث هذا، ولكنه قرَّر عقاب برومثيوس، بعد أن يفرغَ من حورياته الجدد وينتهي من الأكل. وانتهز برومثيوس الفرصة، فقدَّم لزيوس قربانًا من لحمٍ شهيّ، نيابةً عن البشر.

جلس زيوس أمام المائدةِ ينظر للَّحم بوجلٍ، فهو لم يُجرِّبه من قبل. ثم تشجَّع، فانقضَّ عليه وفتك به، أعجبه طعمُه، فعفا عن برومثيوس، وهو يتلمَّظ ويطلب المزيد.

انتهزها برومثيوس فرصةً، وقال لزيوس إن اللحم سيكون أشهى إن تم طهوه بالنار. فاشتعلت النارُ في عينيْ زيوس، وقد فهم ما يرومُ إليه برومثيوس. وفهم برومثيوس ما أشعل النار في عينيْ زيوس، فصمت.

أمام الدار، جلست فاتنة، تُمرر وقت انتظارها لبرومثيوس بالتفكير فيه. أحبَّته. أحبَّت حكمته وجنونه.. هدوءَه كشيخٍ وشبَقه كشابٍّ. علمه الذي لم يبخلْ عليها به، فتعلمت الكثيرَ ممَّا لم تكن تعلم. ما كان يُكدر صفو عَلاقتهما سوى رفضهِ التام أن يُصلي معها لعشتار.

"لا تُصلِّ لأحدٍ، لا تُسلِّمي روحك لإلهةٍ مارقةٍ لا تُحرِّكها سوى شهواتِها"

تُكمِّم فمَه بيدها كلما قال لها هذه الجملة.. يُقبل راحة يدها، ويُبعدها عن فمهِ مُكملًا، وقد أثار الكلامُ حماستَه، فتُكمم فمه بشفتيْها، فينسى ما يقولُ ويذوبُ

فيها.

بالأمس قالت له: دعني احتفظ بشفتيْك، فضحك وردَّ: سأترُك لكِ ما هو أجمل المرة القادمة.

أتى برومثيوس بما قال إنه أجمل. تحت نظراتها المتسائلةِ والمستنكرةِ، وجدته يجوبُ الأرضَ حولها جامعًا كلَّ عظمةٍ جافةٍ.. كوَّم كل العظام، وأخرج من عباءته شيئًا ضرب به الكومة، فحوَّلها إلى شمسٍ صغيرةٍ ألهبت عينيْها. ارتعدت، وركضت هاربةً لحضنهِ، مغمضةً عينيْها اتقاءً لألمٍ لم تُخبره من قبل. ظل يربت على كتفِها، ويُمسّدُ شَعرَها، وطلب منها أن تفتحَ عينيْها تدريجيًّا، حتى تعتادَ "النور".

فتحت عينيْها، ونظرت للنار وهي تتراقصُ أمامها. فُتِنت فاتنة بفتنتها ورشاقتها، فوقعت في هواها.. شعرت بها تتغلغلُ في روحِها، وتُنير أركان مظلمة لم تعلم يومًا بوجودِها.

"كيف استطعت أن توقدَ الشمسَ في غير موعدِها؟ وما هو النورُ الذي تتحدثُ عنه؟"

"هذه النارُ المُقدسة، التي تضيء العالم، ليرى ما يُخفيه الليل عنه. استأثرتْ بها الآلهة، واكتفتْ بأن عرَّضتكم للشمس عدة ساعاتٍ كل يومٍ، لتعملوا وتنبت محاصيلُكم، فتقدِّموا القرابين حامدين فضلها. لامستم ضياء الشمس، ولم تروا نورَها. متِّعي بصرَك بها، انظري إلى انعكاسِها على وجهي، وأخبريني ماذا ترين؟"

"لا أفهم ما تقول.. ولم أرَ كم أنت جميل قبل الآن يا حبيبي".

"ألم أخبرك بألَّا تُصلي لمارقٍ لا يهمه سوى شهواتهِ. النارُ كانت حِكرًا على الآلهة؛ ولكنكم أحق بالرؤية، بمشيئتكم لا بمشيئتهم".

لم تسأله عمَّا يعني، فقد مسَّ كلامُه روحهَا، وشعرت بفورانٍ داخلها لم تعهده من قبل.

صرخ زيوس قائمًا، فانتفضت حورياته وسقطن من على رجليْه. دار حول العرشِ يركلُ صواني الطعام برجليْن تنتفضان من الغضب. وقف برومثيوس أمامه يُشاهِده كتمثالٍ من جليدٍ لا يعبأ بما يحدث..

"أيها الحكيمُ الأبله، أعطيت فانيةً النار، فلم تستطع إلا البوح بسرِّها لكل الفانين، أيها الشيخ المراهق، الذي غرَّته ابنة عشتار"

"لم أطلب منها أن تحتكرَ النور، فالنورُ هبةٌ لا تُحتكر"

"النار للآلهة، وليست للعبيد. أعماك حبك للبشر عن تقديسك لآلهتك يا برومثيوس. حسنًا، هات لي الفانية ابنة عشتار أعاقبها وأعفو عنك"

ضحك برومثيوس وهو ينظر في عينيْ زيوس وقال:

"هل زهدتَ بنات أفروديت البيض وتودُّ تجربة ابنة عشتار الخمرية؟"

"تأدَّب في حضرة إله الآلهة"

"لن تنالَها يا إله الآلهة، فهي ترعى في غير مملكتك، آلهتها تحميها"

"لأجعلنك عبرةً يا برومثيوس، وأصبُّ عليك سوط عذابي، فأجعلك تتمنى هيدز"

"إن غبت، فاعلمي أنني أدفع ثمن النور، فلا تجزعي، واتبعي عقلك وقلبك، سيدلانك على مكاني"

"أغيثيني يا عشتار، دلِّيني على مكان حبيبي"

"لا تصلي لإلهة شهوانية أنانية"

"أغثني أيها النور.. دلني؟"

مرَّ جلجامش بمعبد عشتار، فوجد فاتنةً تجلسُ فيه تتضرعُ، فتأفف منها وقال: "ألن تكفوا عن عبادة هذه العاهرة؟!"

صرخت فاتنة جزعًا من نعت جلجامش. نظرت حولها كي تتأكد ألَّا أحد يراقبهما.. اقتربت منه، وسألته إن كان يعرفُ برومثيوس، فنفى. قالت إنه يقولُ نفس كلامه عن عشتار، ولكنه ليس من رعاياها. صرخ جلجامش وقال:

إنه ليس من رعاياها، بل هو يكرهُها، لأنها مَن وسوست لأبيها ليقتلَ أنكيدو أعزَّ أصدقائه، بعد أن رفض هو مطارَحتها الغرام. أخبرها أنه يبحثُ عن ثمرة الخلود، ليُنقذ نفسه ويُحارب عشتار.

شعرت فاتنة بأن الآلهة أرسلت جلجامش لعوْنها، فطلبت منه أن ترافقه في رحلته. سار هو، وركضت هي إلى جواره كي تُجاري خطواته الواسعة، حتى وصلا إلى سلسلة جبالٍ، وقفت عندها فاتنة ولم تتحرك. قطع جلجامش بضعة كيلومترات، قبل أن يُدرك أن فاتنة ليست معه. عاد إليها، فوجدها تُحاول تسلق

أحد الجبال. قالت له إنها تشعرُ أن حبيبها هنا، فضحك، وتمنى لها التوفيق، وتركها.

"كيف لي أن أفكَّ هذه القيود يا حبيبي، وأدفع عنك هذا العذاب؟"

"فكِّي قيود العقل بالنور، يُفك كلُّ قيدٍ آخر"

"لم أعد أفهمك! أخبرني كيف أفك قيدك لنهرب"

"لن تُفك"

"لن أبرح مكاني هذا إلا وأنت معي"

"بل انتشري، انشري النور بداخلك لكل الأرض، فهذا ما أحب ويُرضيني"

في طريق عودة جلجامش، كان يركضُ ويرقصُ فرحًا وقد حصل على نبتة الخلود. بصوته الأجش المزعج كان يُغني متوعدًا عشتار، ناعتًا إياها بكلِّ ما هو قبيح. توقَّف عن الغناء عندما سمع شدوًا عذبًا يأتي من بعيدٍ. تتبع جلجامش مصدر الصوت، حتى وجد فاتنة جاثيةً على ركبتيْها، تبكي وتنظرُ إلى شخصٍ مُعلَّقٍ بين جبليْن، فهم جلجامش أنه برومثيوس- حبيبها الذي تبحث عنه- وقف جوارها وسأله: "مَن علَّقك هنا؟" فردَّ برومثيوس: "أغضبتَ الآلهة". ضحك جلجامش وقال: "هل ستُغضب الآلهة إن فككت قيدك؟"

وقبل أن يردَّ برومثيوس، تسلَّق جلجامش قمة أحد الجبليْن، وأمسك بالسلاسل التي تُقيده، ففتَّتها في ثوانٍ. ركضت فاتنة فرحةً، تتلقى برومثيوس في حضنها وتبكي.

نظر برومثيوس إلى جلجامش مُستفهمًا، فابتسم جلجامش قائلًا: "إغضاب الآلهة المارقة متعةٌ لا أحرم نفسي منها"، وجلجلت ضحكته حتى هزَّت الجبالَ، وانطلق.

"مسكين هذا الجلجامش.. يبحث عن الخلودِ وهو أقربُ إليه من جلده، يكفي أن..."

قاطعته فاتنة بقُبلةٍ طويلةٍ، بثَّت فيها كلَّ اشتياقها لشفتيْه، وامتصَّت بها أفكارَه وأحاسيسَه حتى تشبعت بها، وانطلقت بعدَها شفتاها تجولان في باقي وجهه.

عاونته ليقفَ، اتكأ على كتفها، وسارا يبحثان عن أرضٍ جديدةٍ يعيشان فيها معًا

دون مُنغصاتٍ من الآلهة.

ظلَّا يتسامران ويضحكان.. هو يضحكُ كلما تخيَّل وجه زيوس عندما يعرفُ بهروبه.. وهي تضحكُ لأنه معها، ولأنه يضحك. توقَّف عن الضحك، وارتفع صوتُ لهاثه. تسمَّرت جزعًا، عندما وجدت وجهَه يتغضَّن، وجسده ينحل ويضعف، كأنه يكبر مائة عامٍ في لحظةٍ واحدةٍ.

قبل أن يكتملَ جزعُها بصرخةٍ، ابتسم برومثيوس ابتسامةً واهنةً، وقد فهم ما يحدثُ، وسقط.

وضعت رأسَه على صدرها، وهي تبكي وتُحاول أن تتكلمَ، ولكن الكلمات علِقت في حلقِها، ولم تخرج منها إلا شهقاتٌ جزعةٌ. حاول برومثيوس رفع يده ليمسحَ دموعَها، وقال لها: "حريتي هي فنائي. لم أعد خالدًا، ولكنني أصبحتُ سعيدًا راضيًا. عندما أذهبُ إلى هيدز، سأغيظهم بما فعلتُ في زيوس".

لم ترح فكرته قلب فاتنة، بل تحوَّل بكاؤها إلى عويلٍ، وقالت وسط دموعِها: "لن تموتَ أبدًا، فقد حفرت أسطورتك على قلبي ألواحًا سيقرأها كلُّ مَن سيأتي بعدنا"

وهنت ابتسامة برومثيوس أكثر، حتى أغمضَ عينيْه ولم يفتحهما مرةً أخرى.

حينها، مسحت المرأةُ دموعَها واستجمعت قوةَ روحِها تُعينها على ما قرَّرت. حملت جثة برومثيوس على ظهرِها، وظلت تسيرُ به عدة أيام، لا تشعرْ بالتعب طوال المسير، حتى وصلت إلى شاطئ البحر، فتهالكت على الأرض هي والجثة. سمحت لدموعِها بالحرية، فانسابت هادئةً تتذوقُ فيها طعمَ الملح، وتأتنسُ بها رفيقةُ حزنٍ وفية. وظلت في مكانها أيامًا لا تأكل فيها ولا تشرب، ولا تفهم كيف تستمرُّ في الحياة رغم ذلك. مع مسحة الضوء في فجر يومٍ تالٍ، رأت سفينةً تتحرك قريبةً من الشاطئ، في طريقِها للإبحار إلى العمق. نادت مُستغيثةً، فالتفت قائد السفينة إليها مُستفسرًا، فقالت إنها تبحثُ عن أرضٍ جديدةٍ لهما. نظر إلى الجثة حيث تُشير مُستفهمًا، فهتفت أنها تحملُ حبيبها معها أينما ذهبت، ورفضت أن تدفنه وتركب السفينة، ورفض أن يحملَ على سفينته جثة. امتعضت من كلمة "جثة"، وأخبرته عن كيف كان برومثيوس، وكيف أصبح ولماذا.. لكن لم تُغير الحكاية من رأيه. قال لها إنها تحملُ برومثيوس بداخلها، وأن تعبها يُخبرها بذلك. قال إنه لن يُفارقها، وإن وارت جثمانه في الثرى. قال إن تخففها من حمل الجسد سيُساعد روحَها على حمل الذكرى.

دفناه، وانطلقا إلى السفينة. سألت القائدَ عن اسمه فأجابها: سندباد.

2015 / 05 / 24

لا تَدْخُل الغُرْفَة

"آه يا قمر في سَماه، عُمري ما هانساه... عُمري ما هانساه"

ما لنا ومال الأقمار، فلنتركها في سمائِها، تُنير لنا الطرقاتِ دون أن نكتشفَ أن نورَها ليس أصيلًا. إن اقتربتَ منها قليلًا، بهرتْك أنوارُها حتى تعمي بصيرتك، إن زدت، فستعرفُ عندها أنها مجرد عاكس لنورٍ آتٍ من بعيدٍ، وإن لم تقدر على الصعود إليها، تهبط هي إليك نيازك، تحفرُ روحك بندوبٍ لا تَشفى منها أبدًا.

******

هل رأيت تلك الغُرفة يا قمر، تلك التي في منتصف الفندق.. ماذا؟ ألا تدري أين أنت؟

أنت نزيلُ غرفةٍ من الغرف العادية في فندقي المتواضع؛ تعالْ.. انظر إلى هذه الغرفة ذات الباب الأزرق المشغول كأبواب قصرٍ أندلسيّ، أعلمُ أنها تشدُّ انتباهك، فلست أول نزيلٍ تشدُّ انتباهه، ولن تكونَ الأخير.

هي شاغرةٌ منذ سنواتٍ. كاد الترابُ يحتلها ويُعلنها مملكته الخاصة، لولا رعايتي لها كل حينٍ. هي لك إن أردتَ، ولكنْ اعلم أن السُّكنى فيها ليست سهلةً.. وليست صعبةً أيضًا.

تريدُ أن تُجرب؟ فلتجربْ إذن، ولكن تحمَّل نتائج فشل التجربة.

لن أخبرَك ما هي نتائجُ الفشل.. فلا بد لك أن تكتشفَها بنفسِك.

تفضَّلْ بالدخولِ...

هل ترى أنها ليست بجمال خارجها؟ جدرانُها ملطخةٌ ببقع الطلاء، ومحاولات إخفاء آثار شهبٍ حاولَت إحراقَها فلم تحترقْ. أغمض عينيْك وانظر إليها، سترى منها ما تُحب. اترك نفسَك للغرفة، فهي تعرفُ كيف تحتويك، ولا تشغلْ بالك سوى بمحاولة احتوائها، وهذا ليس بالعسير.

أما زلت لا تراها؟ أغمض عينيْك وسدَّ أذنيْك.. دع روحك تراها؛ فهي لا تُرى إلا بالروح المُجردة.

تسيلُ من عينيك أسئلةٌ كثيرةٌ.. اسألْ كما تريد، ولكن فكِّر جيدًا في أسئلتك قبل أن تخرج من فمك، فبعضُ الإجابات مُهلكة"

سأجيبك عن هذا السؤال.. هذه الغرفةُ كانت مرتعًا لأحداثٍ كثيرةٍ، عاصرتْ حروبًا وسلامًا، انكساراتٍ وانتصاراتٍ ثم انكساراتٍ مرةً أخرى.. لا شيء مما يحدثُ فيها يتكرر سوى الانكسار.

إن دخلتَ أي فندق، سترى أنه يحوي غرفةً مُشابهةً، قد تكون ظاهرةً للداخلين، أو مدفونةً في سراديبَ لا يصلُ إليها إلا مستحقُّها. ستعرفُ من حجم التدمير الذي أصابها قِدم الفندق، وحجم خبرات صاحبه.

هل رأيت أحدًا يعرفُ آلام الاحتراق سوى من احترق؟

مهما ظننت أنك خبَرت شيئًا من كلام الأقربين، ستُدرك مع أول مواجهةٍ مباشرةٍ أنك جنديٌّ تعِس، أُلقي به في المعركة دون سلاحٍ أو تدريبٍ.

لا تحاولْ أن تعرفَ سرَّ الأركان المظلمة في الغرفة. انتظرْ فقط حتى تحتويهَا، وستضيء لك لترى كل شيءٍ واضحًا جليًّا.

أعتذر عن ثرثرتي.. سأتركك لتستمتع..

آه.. شيء آخر.. إن احتجتني، ستجدني عندك قبل أن تطلب.

******

أدرت مذياع الجوَّال. سئِمت من اختياري لكل شيء أفعله، فأردتُ أن أسمع رغمًا عنّي.

"عانقيني.. ثم إيه؟.. ثم تبقي.. ثم أبقى.. ثم حلوة عينيكي ليه؟"

على صوته الذي تُحبه، رحت أتابع حركاتك في الغرفة يا قمر، تعرف جيدًا أني أراقبك، وأظنك تستمتع بهذا، كما أستمتعُ أنا. تتحرك جدرانُ الغرفة انكماشًا واتساعًا لتحتوي جموحك وجنونك.. أوقات، تختبئ داخل نفسك.. وأوقات أخرى تنتشرُ حتى تبلغَ السُّحُبَ.. مجنونٌ يقطنُ غرفةً مجنونةً. هل هناك ما هو أجمل من هذا؟!

******

ساحرةٌ أتت من بلادٍ لم يُمارَس فيها السحر قط، لتُخرج الجان الذي سكننا وأردانا قتلى لعشقٍ لا يُروى. كانت بارعةً في عملها، حتى إنها طردت الجان وسكنت مكانه، فأصبحنا نبحثُ عمَّن يطردُها، دون أن نجدَ مَن يُجاري براعتَها.

******

جلس القمرُ في وسط الغرفة على الأرض، يتأمل الأثاث والجدران التي ترتِقُ شقوقَها من تلقاءِ نفسِها، دون أن يُدركَ أنه مَن يرتِق!.. لا يعرفُ لم اختصه صاحب الفندق بهذه الغرفة، وكلما سأله قال له: "لأنك أنت.. ليس أكثر".

ظلامُ أركان الغرفة تقلُّ كثافتُه يومًا بعد يومٍ. نظر إليه بقلبه، فرأى الكثير. حدَّثني بعدها عمَّا رآه بأنفاسٍ متقطعةٍ، جعلتني أستمتعُ أكثر بحديثهِ.

قال لي إنه وجد في الركن الأول شابًّا في مُقتبل العمر، يركضُ في الشارع والناسُ سائرون لا يرونه.. يتخبط فيهم، يتعثرُ وينهضُ.. وهم آلاتٌ لا ترى إلا هدفًا لم يُوجد قط.

ظل يركضُ ويركضُ، حتى توقفَ واستندَ بيديْه على ركبتيه. يلهثُ؛ يلفظُ الإرهاقَ من رئتيْه. نظر حوله إلى وجوهِ السَّائرين فوجد نفس الملامح التي رآها منذ عامٍ عندما بدأ في الركض.. تلفت حوله ليتأكد مما يراه، حتى وجد مرآةً نظر فيها لنفسهِ، فوجد أنه فقد بعض الشَّعيرات من رأسه.

أخبره أحدُهم أنه يجب عليه أن يصلَ للنهاية، حتى يستريحَ وتعود الشعيرات تكسو رأسَه من جديدٍ. فعزم أمره، وتابع الركض، ولكنَّ نفَسَه لم يُسعفه هذه المرة ليركضَ بالسرعةِ السابقة. وتوقَّف بعد عامٍ آخر، قطع فيه مسافةً أقل.. أخرج المرآة من جيبه، ورأى أنه فقد المزيد من الشَّعر.

عزم أمرَه، وركض من جديدٍ.. وجد ركبتيْه خائرتيْن، وصدرَه مهترئًا، فقلَّت سرعته حتى أصبحت هرولة. قال لي يومًا إنه لن يتوقفَ حتى يصلَ. ولكنه لم يعرف أنه سيقابلها، ويرغب في الارتماء في حضنها والتوقف عن الركض. وبعد أن ارتمى فيه، ورشف من رحيقها ما لم يروِ ظمَأه، طلبت منه أن يركضا ليلحقا ما فاتهما. ركض هذه المرة بعزمٍ أكبر من المرات الفائتة.. وهي جواره.. ثم أمسك خلفه، فأمسك يدها كي لا يفترقا. قلَّت سرعتها أكثر، فأصبح يجرُّها، فقلَّت سرعته. توقفت.. وقالت له: لا أقدر، فحملها وركض، حتى سقط وهي فوقه جالسةً.

******

لم أقوَ على غلق المذياع، الذي بات يُكرر الأغنيتين، أستمعُ لهما وأفكرُ في القمر الذي احتلَّ غرفتي بإرادتي الحُرة. أراه يتجوَّل فيها ويستكشفُ كل ركنٍ من أركانها، لا أستطيع أن أنظر إلى ملامح وجهه، فأكتفي بالتخيل.

لم يقدر بعدُ على كشف كل الأركان. ما زال يتخبط في ظلام الركن الثاني.

"ثم قلبك ليه مردش.. ثم أنا أصبح محدش.. ثم أصغر.. ثم أفتش.. ثم أعمى يعمل إيه؟"

"والقلب معاه.. توِّهني وتاه.. توِّهني وتاه"

****

وحدَّثني بكلماتٍ تقطرُ منها الدموعُ عن امرأةٍ جميلةٍ، تسكنُ بيتًا لا يحوي سوى التماثيل، تقوم يوميًّا بتنظيف البيت وتلميع التماثيل.. تختارُ لها من الملابس ما يُناسبها، وتودّعها بعدما تتأكدُ من أنها لا تحتاج لشيء. تدخل غرفتها، وتخلَعُ ملابسَها وتنظرُ في المرآة.. لترى امرأة كاملة الأنوثة، جمالها لا يُضاهى. بنظرةٍ حزينةٍ لا تزول، تدورُ حول نفسِها وهي تهزُّ رأسَها بعنفٍ، كأنها ترغبُ في اقتلاعِها، حتى تسقط أرضًا مهوشة الشَّعر منهكة القوى حمراء العينيْن.. وتنام.

تستيقظُ مرةً أخرى، لترتدي من الملابسِ ما يُوقد النارَ في أي حجر، وتخرج إلى التماثيل لتخدمهم وتُهدهدهم. وبعد أن تفرَغ، تعودُ لغرفتها، لتضربَ رأسَها بالجدار حتى تنامَ.

يُنسَخ يومُها عدة نسخٍ، تُعلق على الحائطِ كالتقويمِ، تخلع ورقةً كل يومٍ، لتجدَ أختها ترقدُ أسفل منها، متربصةً متوعدةً بيومٍ آخر.

ذات يومٍ، وهي تخلعُ ملابسَها، نظرت في المرآة، فوجدت لون بطنها يتحوَّل إلى الرمادي!.. تحسَّستها، فوجدتها صلبةً منتفخةً قليلًا، فسقطت صارخةً، وهي تُدرك أن قاطني البيت سيزيدون تمثالًا.

******

"عانقيني.. عانقيني"

"لا أقدر"

رفعتُ رأسي مبهوتًا، فوجدتُ القمرَ جالسًا على طاولتي، يُخبرني أنه لم يعد قادرًا على السكن في الغرفة. لها طاقةٌ لا طاقة له بها. نظرتُ له دون أن أجيب، فأخبرني أنه لا يُريد العودة لغرفته القديمة، بل يُريد أن يترك الفندق كله.

حاولتُ إثناءه عمَّا يريد، ولكن بدا من ثباته أنه فكَّر طويلًا حتى اتخذ هذا القرار، ولا قوة في الأرض ستُقنعه بالانتظار والمحاولة مرة أخرى.

أطفأتُ أنوار الغرفةِ، وأغلقتُ بابها بقفلٍ رميتُ مفتاحه في النهرِ المتسخ ببقع الزيت ونفايات البواخر. جلستُ على شاطئه مُحاولًا أن أبدِو حزينًا، كي يحزنَ النهر من أجلي. بصق ماءه في وجهي، وأمرني أن أنصرفَ، فلا مكان شاغر لحزنٍ جديدٍ.

******

وحدَّثني عن صيادٍ ألقى شبكته المهترئة في البحر، فتعلقت بها عروسُه. أخرجها وهو يلعنُ حظه، فهي ليست سمكًا ليبيعه، وليست بشرًا ليتزوجَها. حاول أن يُعيدها للماء مرةً أخرى.. تعلقت في رقبته، وقالت له: أنت مائي.. فعرَّض نفسَه للشمس حتى جفَّ، وماتت العروس.

******

تجولتُ عدة أيامٍ في ليالي المدينة الغابرة، أبحثُ عن ضوءٍ يعكسه القمرُ، فلا أجد. أبحثُ عن القمر نفسه، علَّه يختبئ هنا أو هناك، فلا أجد.

حاولتُ إضاءة كشَّاف جوَّالي، كي لا أتعثر في الطريق؛ ولكني وجدته مُعطلًا. صرختُ في رمال الصحراء أنْ أضيئي قمري كي أراه، فأجابتني بعاصفةٍ اقتلعتني، ودفنتني الرمال تحتها لتحتويني.

******

وحدَّثني عن وردةٍ ليست كالورود، حمراء داكن لونها تسرُّ المُحبين.. منذ كانت بذرةً، وهي تعني بصحتها وشكلها، انتظارًا ليومٍ يقطفها فيه حبيبٌ لحبيبته. خبيرةٌ هي في المُحبين، إن حاول أحدٌ خداعها بحبٍّ زائفٍ، أخرجت أشواكها ومزَّقت يده.

أتى إليها تمثالٌ طينيٌّ/ حجري مبتسمًا ابتسامة شققت وجهه الطيني/ الحجري. جلس على الأرض جوارها وغنَّى. لثم بتلاتها، فاستكانت بين يديْه، ثم استفاقت فزعةً عندما تحوَّل غناؤه إلى نواحٍ. اضطجع جوارها على الطين، كأنما يبغي العودة لما خُلق منه، علَّه يكون غذاءً للوردة التي ليست كالورود. مالت عليه، واستطالت بتلاتها لتُغطيه وتربت عليه.

طلب منها أن تذهب معه إلى زوجته/ حبيبته، التي قسَّاها الزمنُ وأصاب بصرها، فأصبحت لا تراه إلا تمثالًا حجريًّا بلا شعور. اقتلعت نفسَها من الأرض دون تفكيرٍ، وارتمت في حضنه؛ فحملها كما يُحمل الوليد، وطار بها فرحًا إلى منزله. وجد زوجته/ حبيبته مهوشة الشعر راقدةً على الأرض تبكي. وقف حائرًا بينها وبين الوردة.. ثم ركض إلى المطبخ فأحضر كوبًا مملوءًا بالماء. وضع الوردة فيه برفقٍ، ولم ينتبه لألسنةٍ من النار خرجت من محجري زوجته/ حبيبته، كادت تحرقه وتحرق الوردة. ركض نحوها– زوجته/ حبيبته- واحتضنها، فسكنت رأسها على صدره لثوانٍ، ثم انتفضت واقفةً وارتدت ملابسها.

أعطاها الوردة، فرسمت على وجهها المُنهك ابتسامةً ناقصة التكوين، وقبَّلت خدَّه الحجري/ الطيني، فابتسم ابتسامةً واسعةً زادت من تشقق وجهه، وخرج من الغرفة على أجنحة السعادة، ليُكمل ركضه لهذا اليوم.

نامت، فمسَّدت الوردة شَعرها وخدَّها، فاصطدمت ببشرتها البلاستيكية الباردة، فكسَا الحزن بتلاتها بالذبول.

بعد أن استيقظت الزوجة/ الحبيبة من نومها، خلعت ثوبها لتُري الوردة بطنها الرمادي. تحدثت معها حديثًا مُطولًا، قصَّت عليها فيه كل حياتها، فزاد انتشار الحزن، فذبلت أكثر. أخرجتها من الكوب. خلعت جذورها، ووضعتها فوق أُذُنها، دون أن تلتفت لصرخة احتضارٍ أطلقتها وهي تخترق الشعر البلاستيكي.

*****

وقف القمرُ ينظر إلى باب الغرفة.. اتسعت عيناه وهو يقرأ ما كُتب على اللافتة، التي علَّقتها مؤخرًا. وقفتُ بينه وبين الباب، فنكَّس رأسَه دامعًا وقال لي: "أريد أن أدخل الغرفة. ابتعادي عنها جعلني أدرك أنها أجمل كثيرًا مما تبدو". حاولتُ أن أرد، ولكني تذكرتُ أن لساني غادرني منذ وقتٍ ليس بالقصير. التفت لباب الغرفة، ونزعتُ اللافتة.. ألقيتها على الأرض، ووطأتها بقدمي وأنا أغادر الفندق كله، تاركًا القمر واقفًا أمام باب الغرفة.

******

وسط قبورٍ ربضت في الصحراء، وقف الحفار ينظر حوله. يبحثُ منذ سنواتٍ عن عبرةٍ، أخبروه عنها صغيرًا، ولم يجدها وقد هزم الصلع والشيب شعرَه. وقف يضحكُ على شواهد حجرية تتناثر هنا وهناك، تحفظ أسماء أناسٍ لم يستطيعوا لأنفسهم حفظًا.

وسط القبور، وقف ينظرُ إلى قبرٍ جديدٍ لم يره من قبل. تساءل غاضبًا عن الحفار الذي تجرَّأ على الدخول إلى منطقته، وتوعَّد أن يعرفه ويُلقنه درسًا.

شيءٌ أحمر اللون ينبثقُ من بين طين القبر.. تحت شاهد القبر الجديد. تجمَّد مكانه وهو يتابع خروج الكائن الأحمر من ثنايا الطين.. ونسي وعيدَه للحفار المُتعدي. اقترب منها، فوجدها وردةً حمراء داكنة، ليست كالورود.

*****

"عانقيني.. آه يا قمر في سماه... ثم إيه.. عمري ما هانساه.. ثم تبقي.. عمري ما هانساه.. ثم أبقى.. والقلب معاه.. ثم حلوة عينيكي ليه.. توِّهني وتاه.."

ردَّدت جدرانُ الغرفة الأغنيتين، ومزجت كلماتهما معًا، فلم يعد من الممكن فصلهما.

2015 / 10 / 01

<u>قَوْسُ قُزَح</u>

أُقيمت صلاةُ العصر أخيرًا، واصطفَّ المُصلون. كان هو في الصفِّ الأخير، بجوار أقرانه من الأطفال، يلحظ حركاتهم ومزاحهم أثناء الصلاة، يودُّ لو يصفعهم على أقفيتهم ليستقيموا ويصلُّوا كالكبار.

"الله أكبر"

يركع الركعة الأولى، آخيرًا، بعد طول تذمرٍ من هذا الإمام الشيخ البطيء، يكادُ يسمعُ تكسُّر مفاصله وهو يركع أو يسجد، "لِم لا يكون الإمام شابًّا بدل هذا الميت؟" لا يهم الآن.. باقي ثلاث ركعات لينطلقَ حيث يريد.. "لِم لا يكون العصرُ ركعتيْن فقط كالفجر؟".

يعلو صوتُ الأطفال بجانبه، فينفث الهواء بصوتٍ مسموعٍ ليردعَهم، دون جدوى. يستمرُّ الإمام في عزف سيمفونية تكسُّر المفاصل، بسرعةٍ تغلب السلحفاة قليلًا، ويضغط هو بأصابع قدمه على الأرض، ليكبح جماح رجلَيه اللتيْن ترغبان في ركلِ مؤخرات الأطفال والشيخ.

"السلام عليكم.. السلام عليكم"

يسلم التسليمة الثانية وهو نصف واقف، يختطف "شبشبه" وينطلق وهو ينتوي- ككل يوم- أن يقذف الإمام بالحجارة إن فاته الحفل.

يصلُ إلى جاره وصديقه الشيخ. يجده جالسًا على الأريكة الأثرية،التي يظن دومًا أن الله خلقه بها، جوار باب العمارة. يُلقي عليه السلام وسط لهاثه، ويدلف إلى مدخل العمارة، يوصِّل خرطوم المياه بالصنبور، يتحفز وهو يفتح الصنبور، ليركض بالخرطوم إلى الشارع الترابي، سابقًا المياه الراكضة في الخرطوم، ليمارس عمله الممتع في رشّ الشارع بالمياه.

يقف على الرصيف جوار صديقه الشيخ، رزينًا يكبح طاقته، حتى لا يُغضب الشيخ ويظن أنه طفلٌ ليس أهلًا لشرف رشّ الشارع. يُحاول أن يهدأ، فيجرُّ حديثًا معه.. "هل يكرهنا الكبار؟ شيخ الجامع يكرهَنا، يُعذبنا في الصلاة ويرمينا في الصف الأخير، يسبُّ كل الأطفال وأنا معهم إن سمع ضوضاء من صفنا، والله أنا لا ألعب في الصلاة، ولكنه يسبُّني أيضًا". لا يجد ردًا، فينظر إلى صديقه الشيخ، ليجده نائمًا– وهو ينام كثيرًا بالمناسبة– ثم ينطلق في عزفِ مقطوعاته بقطرات المياه المتدفقة معًا في حزمةٍ شفافة، تتلوى كالتمرحنة حين رقصها.

"الفل أحلى ولا الياسمين؟" فيردُّ هو: "البنفسج".

يلتفت إلى شرفة منزله، التي تتراصُّ عليها أصصُ البنفسج، وتنظر إليه من ارتفاع أربعة طوابق. يتمنى لو تطولها حزمة الماء فتسقيها، وتقطر عليه فائض مياهها المخلوط بعطرها، ولكن التمرحنة لا تصل.

يُحاول نزع الباشبوري من الخرطوم، فتبتلُّ ثيابه حتى يستطيع له نزعًا. يضغطُ على فوهة الخرطوم بإصبعيْه، ويرفع يده بالخرطوم، لتنطلقَ المياه للأعلى عريضةً كالنافورة، ويدورُ بها حول نفسهِ بهدوءٍ، وهو ينظر لحبَّات الماء مُترقبًا.

ككل مرةٍ، لا يلتفت إلى الشيخ الذي استيقظ، وشاهده وهو يدور بالخرطوم، وارتسمت على شفتيْه ابتسامةٌ استدعاها من طفولته. يُخفي الابتسامة، ويُقرر الاستمرار في التظاهر، كي لا يُفسِد على الصبي حفله.

يتوقف عن الدوران، ويودَّ لو يتوقف عن التنفس، حتى لا يهتزّ الخرطوم بعد آن نجح أخيرًا في إظهار قوس قزح. يُراقب الألوان المختلفة المتجانسة، وهي تمرُّ خلال حبَّات الماء، صانعة عِقدًا من لؤلؤٍ، واسطته صورة مليكته "أبلة سارة". يودُّ لو مدَّ يده ليقبض على العِقد، ويُطوق به رقبته ورقبتها. يلهثُ وهو يتفرج على الألوان.

لا يُحب الأحمر كثيرًا، فيتغاضى عن وجودِه، ويتمنى لو اختفى يومًا من قوس قزح.. ينظر إلى البنفسجي، لونه الحبيب الذي طالما لوَّن به رسمه، الذي يظنه جميلا. تضحك دائمًا أبلة سارة وهي ترى رسمه البنفسجي، وتقول له: أنت تُشبهني، قلبك كزهرة البنفسج.

لا يعرفُ ما تقصد من التشبيه، ولكنه يطيرُ من الفرحة كلما تذكَّر: "أنت تُشبهني" بصوتها. يربتُ على جيبه، ليطمئن إلى وجود زهرة البنفسج التي قطفها ليهديها لها.

لا ينتبه للوحلِ الذي صنعه تركيز المياه على منطقةٍ واحدةٍ، ولا لثيابه التي ابتلت وتطيَّنت. وعندما يستيقظ الشيخُ ويُنبهه، يتصنَّع عدم الانتباه، يظلُّ كما هو حتى يخفت قوس قزح وتنفرط حبَّات العِقد، فيعلو صوت الشيخ يأمره بغلق الصنبور، فيهبط بفوهةِ الخرطوم ليلتقط الصورة التي كادت تسقط مع انفراطه. يكمل رش الشارع الترابي، حتى يُؤذن لصلاة المغرب.

يغلق الصنبور، ويُعيد الخرطوم إلى مكانه، مُتذمرًا من ضيق الوقت بين العصر والمغرب.

30-04-2015

زَهْرَةُ الشّيخِ عِشْق

ألقاها على رؤوسنا.. ثم نظرَ للسماء ضاحكًا يُراقب النجومَ بُرهةً.. ثم نظر لنا، وتلذذ بمرأى اللهفة على وجوهنا.. ثم علت ضحكته، وأرجع بصرَه إلى السماء.

أخبرنا أن الحائطَ بُني في عهدٍ ما، بناه رجلٌ ادَّعى الإمارة، وسيمٌ جميلٌ، قدِم من مكانٍ غير الواحة، في لباسٍ من حريرٍ مُوشَّى بالفضة، يمتطي جوادًا كأعاجيب الزمان. نزل الواحة وعيناه الخضراوان لا تتوقفان عن البكاء. قيل إنه من الأسرة الحاكمة السابقة، هرب بعد أن اغتُصِب منها المُلك، وأعمَل فيهم الأمراء الجدد التَّقتيل. آووه إكرامًا لخضَار عينيْه، وقالوا ربما تخضرُّ واحتنا الصفراء مثلها.

دائم التجوال في الواحة كان. يُكلم حبَّات الرمال ويعدُّها. بعدها، يرفع بصره يُكلم

سعف النخيل، ويسأله إن كان هو أكثر أم الرمال. لم تُجبه الرمال ولا السعف يومًا. حتى وصل يومًا عند البئر القديمة/ مهد الأساطير، وقرَّر أن يستقرَّ عندها. حذَّره أهلُ الواحة، وقالوا إن المكان ملعونٌ. ولكنه ردَّ بأنه المكانُ الوحيدُ الذي ارتاح فيه قلبه.

اهتمَّ به أهلُ الواحة فترةً من الزمن.. كل يومٍ يمرُّون بعيدًا عن البئر، ناظرين نحوها ليروا هل فعلت فيه الأشباحُ أفاعيلَهَا، أم ما زال سليمًا كما هو. وكلما مرُّوا، وجدوه جالسًا ساندًا ظهره للبئر، يتطلع للسماء. ثم اعتادوا وجوده، ففقدَ بريقَه، ونسوه. ثم مرُّوا ذات يومٍ، فوجدوه قد خلع عنه عباءته البالية، وشمَّر عن ساعديْه ليقيم الحائط. استغربوا فِعله، ولكنهم تركوه يفعل ما يريد. لم يهتم سوى الأطفال.. تحسَّسوا الأخبار، وعادوا بها لأهل الواحة. قالوا إنه يأتي بالتراب، وشيء آخر لا يُدركون كُنهه، فيخلطهم ويُريق عليهم من دمهِ ودموعهِ التي لا تتوقف، ويُخرج الماء من البئر الجافة. قالوا إنه يبني حائطًا عجيبًا، لم يروا مثله.

كلماتُ الأطفال أفقدت الكبار وعيَهم.. ضربوا أطفالهم لعصيانهم، وحبسوهم، انكمشوا في حدود واحتهم، وما عادوا يعبرون ناحية البئر القديمة. حتى عرفوا بعدها- من الأطفال الشياطين- أنه يجلسُ كل يومٍ تحت الحائط، يبكي زوجته التي ماتت كمدًا من حظها الأغبر. فانتشر في الواحةِ أن الحكَّام الجُدد اغتصبوا زوجته- التي ليس في جمالها أحدٌ- مئات المرات، ثم قتلوها، فطار عقل الأمير.

زادوا في حياكة قصصهم.. قالوا إن زوجة الأمير لم تكنْ من العائلة المالكة؛ ولكنها جاريةٌ رآها في السوق خطفت قلبه بجمالها وهربت.. تتبَّعها، حتى عرف مَن يكونُ سيِّدها، فعاد لأبيهِ يطلبُ الزواج منها. استخفَّ أبوه بطلبه، وظنَّه يمزح؛ ولكنه ألحَّ في طلبه، فردَّ أبوه بأنه يمكنه أن يشتريها ويجعلها محظيته إن رغب. ولكنه رفض، وقال: أُريد شريكةً لحياتي؛ لا خادمةً أنكحها.

استشاط أبوه، وأمر بحبسِه في غرفته، وأرسل إلى سيد الفتاة يأمرُه ببيعها لأي عابر سبيل، وإلا نفي كليهما من المدينة. رضخ السيد وباع الفتاة، فارتاح الأب، وأفرج عن ابنه، ظانًّا أن الأيام ستُنسيه، وأنه سيجد من بنات العائلات مَن تُنسيه اسم أمه.

خرج الفتى الأمير من محبسهِ، إلى بيت سيد محبوبته.. سأله عنها، فأخبره بأوامر والده. هام على وجههِ يتحسَّس أخبارها شهورًا، مُعاهدًا نفسه ألا يقرب الطعام والماء حتى يعثرَ عليها. وظل على عهده، حتى وجدها في مدينةٍ مجاورةٍ. طلب شراءها من صاحبها، وأعطاه ضعف سعرها، ثم أعتقها وتزوَّجها، واستقرَّا في تلك المدينة، ولم يعد لزيارة مدينته إلا بعد سنواتٍ.

قال أهلُ الواحة إن تلك المدينة قريبة من واحتهم.. وأن الأب الأمير عندما اقترب منه الموتُ ندم على ما فعل بابنه، فأرسل إليه يدعوه للعودةِ والعيش في قصره، كما يليقُ به وبزوجته. ولكن الأميرَ رفض، وقال إنه سيعيشُ في المدينة التي هاجر إليها فآوته وزوجته. زار أباه، كي يراه قبل موته. وفي زيارته، انقضَّ الأمراءُ

الجدد.

جمع جماعة من أهل الواحة شجاعتهم، وقرَّروا الذهاب إليه ومواساته. وجدوه قد جفَّت مقلتاه، وتحوَّل بياض عينيْه إلى الأحمر، فتشاءموا. رأوا أنها علامةٌ، وأن الواحة ستخضر، ولكن الدم سيُحيطها من كل جانب. كلَّموه، ولم يرد.. زهد في الدنيا، وفي الحديث، وهو الزاهد أصلًا في الكلام لخجلهِ الشديد. تحوَّل إلى درويش، فباركوه، وطلبوا برَكته، حتى رأوه يومًا بثيابه المهترئة وشعرِه الأشعث مقرفصًا تحت الحائط، وقد فُكَّ قيدُ لسانه.. يولول ويصرخُ قائلًا: "سامحيني يا حبيبتي.. أردت يومًا أن أكون ذا أهمية، ولكني لستُ سوى مسكين يلتصق بالحائط دون أن يراه أحد".

سمعه الجمعُ، فعرفوا أنه دعيٌّ كذَّابٌ، بعد أن كانوا يظنونه أميرًا قتله العشق. فاروا من الغضب، وهم يتذكرون كيف نصَّبوه درويشًا، يقصدونه لشكوى حرارة قلبٍ خافقٍ لمحبوبةٍ صعبة المنال. انتشر خبره في الواحة، وقال البعضُ إنه لمَّ منهم رفاتَ آبائهم لبناء الحائط، بعد ادعائه أنه مُقدَّس، وأنه أُمر ببنائه بوحي. وقال بعضٌ آخر إنهم رأوه عدة مراتٍ يتحدثُ مع أشباح البئر، وأن الأشباح هي من وسْوسَت له، كي تسحر الواحة وتسلب خيراتها.

فتح عينيْه، فرأى الناس والقتل.. مُتحلقين حوله، يشفطون الهواء وينفثون الدخان بدلًا منه. تأمل وجوهَهم القاسيةَ، وضحك.. ثم التفت للحائط، وملَّس عليه بيديه. أسند خدَّه إليه، وهمس قائلًا بفرح: "هل رأيتِ يا حبيبتي، قد أصبحت مؤثرًا، يجتمعُ لي الناس.. قُومي من رُقادكِ وانظري.. انظري..". شمَّ رائحة الغضب والموت، وقف وفتح صدره، ليستنشقَ أكبر كميةٍ منها. اتجه نحوهم، فرفسَه أولهم بقدمه في وجهه، فارتطم رأسُه بالجدار، وطبع بقعةً من الدم البنفسجي. زاد في ضحكه، والتفت للحائطِ قائلًا: "لا تقومي، أنا قادمٌ إليكِ". وقام ثانيةً، واتَّجه لهم، فضربه آخر بعصًا غليظةٍ، فارتطم بالحائط مرةً أخرى. فقام ثالثًا، وفرد ذراعيْه ورقص.. استشاط الناسُ وهم يرونه مبتسمًا يهز كتفيه ورأسه ويرقص. قال أحدُهم إنها رقصة الجن، ويجب ألا يُكملها. انهالوا عليه بمعاولِهم وعصيِّهم، حتى تناثر كل دمه البنفسجي على الجدار، مُشكِّلًا زهرة، تبدو بتلاتُها كقلوبٍ شُقت ولم تنقسم.. ظلت مرتبطةً ببعض ألياف.

غضبت الشمس من فعلتهم، فغابت.. ارتعبوا وقالوا: "إنه مُقدَّس! بئس ما فعلنا بالرجل الصالح".. ردَّ آخرون: "بل هو ابن موتٍ، ولهذا كان لونُ دمه بنفسجيًّا. لم نفعل سوى تسريع موته بضع دقائق".

ولول من ظنُّوه مُقدسًا، لطموا الخدود وشقُّوا الجيوب، ركعوا ورفعوا أيديهم للسماء يطلبون المغفرة من الإله.. فردَّ الإله بمطرٍ غسَل ثيابَهم، ولم يغسل

جلودهم.

زاد فزعُهم مما شاهدوا من عجيب الأمطار. واستقرَّ أمرُهم على الذهاب إلى شيخ الواحة، يسألونه الفتوى. خرج عليهم الشيخُ من صومعته، بوجهٍ شاحبٍ لم تُقبّله الشمسُ لسنواتٍ، وجسدٍ نحيلٍ جعل بُرده الأزرق يبدو كأنه ملفوفٌ حول عصًا. نظر إليهم من فوق التبَّة، دون أن ينزلَ أو يسمحَ لأحدهم بالصعود. حكوا ما صنعوا، فوبَّخهم واحمرَّ وجهُه الشاحب من الغيظ. توعَّدهم بعقابٍ شديدٍ، فخرُّوا راكعين يتضرعون ويعدون بالتوبةِ النصوح.. فأمرهم ببناء ضريحٍ للوليّ العاشق "الشيخ عِشق" جوار الحائط، والتجمُّع كلَّ أسبوعٍ عنده، ليبكوا ندمًا على ما فعلوه بالعبد الصالح، لعل الله يغسلُ جلودَهم بالدموع. نصَّب نفسَه خادمًا للضريح، مُسمِّيًا نفسَه "صاحب الشيخ عِشق". لم يجرؤ أحدُهم أن يرفعَ عينيْه يسأل الشيخ متى كان صاحبًا له، إلا طفلٌ أشهل، عينه الزرقاء أوسع من السوداء. لم يسمع الشيخ سؤاله، وقبل أن يُكرره بصوتٍ أكثر ارتفاعًا، كتم من كان بجواره فمه. كمَّموا أفواهَهم، ولم يتحدث في هذا سوى النساء اللائي انتقدن في مجالسهن الخاصة كذب الشيخ بعد هذا العمر، وظلت ألسنتُهن تتناقلُ ما فعله، حتى بهتت الفعلة، وأصبحت حكيًا قديمًا.

تغيَّر اسمُ يوم الجمعة، وأصبح يوم الحائط.. يُقدمون النذور، ويطلبون البركة من الشيخ الصاحب، الذي تورد وجهه وامتلأ جسده. يحكي لهم عن كرامةٍ جديدةٍ من كرامات الشيخ عِشق، وكيف أنه يعرفه منذ كانا روحيْن في الذَّرِّ، وأن الوحي قد أتاه يومًا يُخبره بما سيحدثُ لرفيق روحه. ثم يأذن لهم بالتحلق حول الضريح، فيهرولون ويركعون باكين، فتروي دموعهم الحائط. وزاد بعضُهم في ندمهِ، حتى أصبحوا يأتون إلى الحائط بعصيّهم وأسواطِهم، يضربون بعضهم البعض عقابًا على ما فعلوا، ومن سال منه الدمُ أولًا أمسى مبروكًا، ومن مات فهنيئًا له بالشهادة، تروي دموعُهم ودماؤهم الحائط، فتزداد نضرة الزهرة البنفسجية. كبرت، والتأمت بتلاتها المشقوقة، حتى أصبحت بحجم الحائط، فأمر الشيخُ عِشق- على لسان صاحبه- كل واحدٍ منهم ببترِ طرفٍ من أطرافه، ليجمعوا عظامًا يُكملون بها بناء الحائط، فأطاعوه راغبين!

جاءت الأجيالُ التاليةُ ناقصةً طرفًا من الأطراف.. ذراعًا أو ساقًا، ورثوا عن آبائهم التحلق والبكاء حول الحائط.. وغيَّرت السنون وخليفة صاحب الشيخ عِشق سبب البكاء. صاروا يبكون نقصَ أطرافهم، وغضب الله عليهم.. ونسوا ما فعل أسلافُهم. يبكون، وتروي الأرض دموعَهم، فتبكي معهم الزهرة تشوههم. تنزل قطرات دمعها البنفسجية، تحفرُ ممرًّا في الحائط، لتصلَ إلى الأرض فترويها، وتجري في باطنها إلى ضريح الشيخ عِشق. تخرج من كل قطرةٍ امتصتها الأرض زهرة، لا تُرى إلا بالعين المُدققة، أو العين العاشقة، كأعين شابٍّ وفتاةٍ اتخذا من الحائط ملجأ يتقربان فيه من بعضِهما، تحت عين الشيخ عِشق، بعد أن فرَّقت بينهما تقاليدٌ بالية.

يومٌ غائمٌ، استيقظ فيه الناسُ على صوتِ صُراخٍ، كأنه من السماء. أصغوا السمع، فعرفوا أنه من جهة الحائط. تخشَّبوا، وجمدت نظراتُهم وهم يرون شابًّا وفتاةً من أهل الواحة عاريَيْن، مصلوبيْن على الحائط، وأم الشاب وأم الفتاة تصرخان، تقبضان من ثرى الأرض وتهيلان على رأسيْهما.

خرج عليهما الشيخ الخليفة، وعنَّفهما واتهمهما بالكفر لبكائهما على الكافريْن المارقيْن. لمعة الغضب في عينه الزرقاء أعلى منها في السوداء، أخافت الناس فخرسوا. أخبرهم أن الشاب والفتاة كانا يأتيان هنا ليُدنِّسا طهارة الحائط. يختبئان وراءه ليتسامرا ويتحدثا عن حبهما الجارف، الذي وقف الأهلُ حائلًا في طريقه، لأن الفتى ليس من أشرافِ الواحة. تركهم الشيخ عِشق والشيخ الصاحب دون عِقاب، أملًا في أن يتوبا ويتوقفا؛ ولكنهما استمرَّا في غيِّهما، وتحوَّل السَّمر إلى اختلاسٍ للقُبلات، وانتهى بأنهما تضاجعا تحت سمع وبصر الشيخيْن. فخرج الشيخُ عِشق من ضريحهِ، وقد بلغ طوله السماء.. واستتابهما، فلم يتوبا.. فصلبهما، ليكونا عبرةً لغيرهما.

بصقت عليه أختُ الفتى، وأقسمت بأن هذا كذبٌ وافتراءٌ. لم تستطع أمها كبح بصقتها في الوقت المناسب، فزمجرَ أهلُ الواحة، وزاد لمعانُ عينيْ الشيخ الخليفة. أمرَ أهلُ البنت أن يصلبوها بأيديهم جوار الكافريْن. ركعوا له يلتمسون الرحمة، فحكم بأن تعتكفَ معه لخدمة الشيخ عِشق، تكفيرًا عن ذنبها، وأن تنذر نفسَها له، لا تُفكر في الزواج لآخر العمر.

رضي الأهلُ، وأصبحت الفتاةُ خادمةً للشيخ عِشق. وقبل انصرافهم، لم ينسَ أهلُ الكافريْن أن يبصقا على جثتيْهما، وعلى بعضهم.

بكت الزهرةُ العاشقيْن، حتى بهتت دون أن يُلاحظها المُتحلقون الباكون أحوالهم العسيرة. استمرَّت في التضاؤل والشحوب، حتى شعرت بدنو أجلها، فانتظرت لحظة هدوءٍ حولها، وفرَّت من الحائط تبحثُ عن جسد الشيخ عِشق، لتموتَ مُطمئنةً في حضنه، أو لتُبعث فيه من جديدٍ. وصلت الزهرةُ للضريح، واندفعت آملةً لجثمان الشيخ عِشق، فلم تجد سوى جيفةِ الشيخ الصاحب، فبصقت عليها، وانصرفت لا تلوي على شيء.

تحلَّق الناسُ حول الحائط، فلمح واحدٌ منهم خادمة الضريح تسيرُ مُستترةً خلف الحائط ببطنٍ منتفخ. وقع الخبرُ على أهلها فدكَّهم. انتفضت الواحة لقتل الشيخ الخليفة المارق، الذي دنَّس طُهر حائط الشيخ عِشق، وفضَّ شرَفهم.. عدا أهل الفتاة المصلوبة، الذين شمتوا فيما حدث.

وقف أمامهم الشيخ الخليفة غاضبًا. أقسم بأنه لم يمسَّ أنثى طوال حياته، ناذرًا نفسَه للشيخ عشق، وأنه هو– الشيخ عِشق- مَن تعطَّف عليها واصطفاها لتحملَ ابنه، الذي قرَّر أخيرًا أن يهبه لأهل الواحة. وأتبع يذكِّرهم، ويروي كرامات

الشيخ عِشق، الذي آخرج الماء من البئر الجافة، وكرامات الشيخ الصاحب، وكيف أنه من أغاث الناس عندما قلَّت النذورُ وقت القحط وأصبحت مزجاة، فضرب الأرضَ فانبثقت منها سبع أعينٍ، زرعوا منها وأكلوا ووفوا نذورهم.

قال أحدُ المُعمِّرين إن الأعين موجودةٌ من قبل هذا بكثير؛ ولكنه كسِل أن يقولها بصوتٍ مرتفعٍ، فاكتفى بأن يذكِّر نفسَه. صرخ طفلٌ صغيرٌ مُقاطعًا: "أين الزهرة؟"، نظر الناسُ له مُستغربين، يسألون عن أي زهرة يتحدث. أنكروا وجود زهرة على الحائط منذ وعوا. أصرَّ الطفل على وجود الزهرة سابقًا واختفائها الآن، فضاقوا به، ولطمه أحدُهم، فارتدَّ قتيلًا على الحائط.

ارتفعت صرخاتُ الأطفال الهلعة تشق السماوات والأرض، وهم يرون دم صاحبهم ينفجرُ من رأسهِ ويسير نحو الحائط. صرخ الحائطُ غاضبًا، وفارت الأعين السبع وأخرجت ماءً بنفسجيًّا، زحف على الأرض كالحِمم يُهلك النخلَ والبيوت. انكمش الناسُ حول الحائط يصرخون، ويدعون الشيخ عِشق أن ينقذهم. خرجت من الحائط مئاتُ الأذرع، تمسك ما تطاله من الناس، تعتصرُ أعناقهم، حتى ينبثقَ الدم من أعينهم وأفواههم، ثم تسحبهم داخل جسده، فيتضخم وتنضح بقع الدم عليه. الأجساد المنتفضة وهي تدخلُ في الحائط شكَّلت زهرةً جديدةً مختلفةً ألوانُها.

حينما رأى الشيخ الخليفة كلَّ هذا، انتفض هاربًا إلى بيته يعتصمُ فيه، فوجد الخادمة وقد أتاها المخاضُ، وأنجبت صبيًّا جميلًا أخضر العينين. حمله، ورأى أن الشيخ عِشق آثر أن ينقذه، فسجد له. خرج على الناس المرتعبين وقال: "بشراكم.. قد أتاكم الشيخ الصغير ابن الشيخ عِشق". فانتبهت له البقيةُ الصالحةُ، وخرُّوا ساجدين.

رفعوا أعينهم من الأرض، على صوت صرخةٍ عظيمةٍ خرجت من الشيخ الخليفة. وجدوه يترنَّح، مُمسكًا رقبته المذبوحة، والدم يُغرق ملابسه. خلفه، وقفت الخادمة ممسكةً بيسراها سكينًا عظيمًا، ترفعها للأعلى ناظرةً للسماء، وبيمينها طفلها/ ابن الشيخ عِشق.

لا يعرفُ الناسُ حتى الآن لِم لَم يفتكوا بها عندما طرأ هذا في أذهانهم. ولكنهم بعدها عرفوا أن هذا من رحمة الإله، فلو فعلوا لأرسلَ عليهم ريحًا تقتلعُ واحتهم.

نظروا للمشهد المهيب وهي تصرخُ في السماء، وتقول: "افتحي أبوابك، واغمرينا بأمطار رحمتك، باسم زوجي الشيخ عِشق".. ثم تنظر للأرض، وتقول لها: "ابلعي ماءك البنفسجي، باسم زوجي الشيخ عِشق، وذري زرعَ الناس ونخلهم".

أطاعتها السماءُ والأرضُ، ونزل المطرُ يغسلها ويغسلهم. قالت إن الشيخ عِشق قد أمرها بقتل الشيخ الخليفة، ذلك المارقُ الذي كان يتلصصُ عليها وعلى لحظاتها الحميمة في حضرة الشيخ عِشق.. وأن الشيخ قد اكتفى من الوكلاء

والخلفاء، فقرَّر آن تصبحَ هي الشيخة الأم، حتى يكبرَ ابنُها الشيخ عِشق.

28-12-2015

أَنَا مَوْجُودٌ!

على فخذ تمثالٍ لرجلٍ هجرَه قلبُه وحلَّ محله شقيقة نعمان، كنتُ أجلس في الحديقة، وتجلسُ هي جواري تنتحبُ، وهي تحكي لي عن أمها ومرضها الأخير. قالت إنها تتمنى الموت، كي لا ترى نفسَها في هذا الموقف مرةً أخرى. . وكنتُ أجلسُ جوارَها تمثالًا، ينتحبُ قلبي المُمزَّق وأنا أرى لؤلؤها المُنهمر ونشيجها الذي يعلو.. وكانت التماثيلُ مُتناثرةً حولنا تُراقبنا.

غصةٌ في حلقي منعتني من الكلام.. أخذتُ أتنفسُ بعمق، وأحبسُ الهواء في رئتيَّ لإزاحتها، ولكنها رفضت أن تُغادر حلقي. لولا أنني رجُلها، لبكيتُ لبكائِها، وارتميتُ في حضنها. زاد لمعانُ عيني وأنا أقاوم وأتجلَّد. نظرتُ لها، وحركتُ شفتيَّ.. ولكن صوتًا لم يخرج من بينهما. أردتُ أن أقول لها: لا تذكري الموت مرةً أخرى أمامي، ولا من ورائي؛ فأنتِ لا تموتين أبدًا. لستُ أذكر إن كان هذا ما قلته فعلًا، وإن كانت سمعته أم لا، ولكن الأكيد أنني كنتُ أعني هذه الكلمات. نظرتُ لها متوسلًا أن تهدأ قليلًا.. أنفاسي المتقطعة أغنتني عن الكلمات. نظرت لي، وحاولت الابتسام؛ ولكنها فشلت. ما أحلى هذا الفشل، الذي أظهر جمال وجهها الباكي.

هبط اليمامُ من السماء، وحطَّ على كتفيْها وفخذيْها، وأرسلتْ السماء بعض سحبها لتظللها. كلهم سكنوا وهم ينظرون إلى وجهها المبتسم الباكي. حتى الشمس، توقفت، بعد أن انتبهت إلى سكون الكون. أرسلت أشعتها إلينا، لتأتيها بالخبر. لولا بقايا احترام داخلي لصمت الطبيعة، لانحنيتُ أقبل خدَّها وأتذوق لؤلؤها الذي يجري عليه.

مددتُ يدي أربت على كتفها، فطار اليمامُ، وظل يدورُ حولنا. أمسكت كتفها، وحضنتها، ووسَّدت رأسها صدري ترويه بدموعها. أغمضت عيني، واستنشقت عبير شَعرها.. لا أعرفُ من منَّا بث الطمأنينة للآخر. كل ما أذكره هو أنني كنتُ مُترددًا وأنا أمدُّ ذراعي لأجذبَها لحضني.

أفكارٌ كثيرةٌ تصارعت حينها.. هل تكتفي بزجري بعينيْها الرماديتيْن وردِّي إلى عقلي؛ فقط؟ أم قد تسبني وتتهمني بأنني أستغل فرصة ضعفها؟.. هل تتركني، أم ستحب ما أفعل؟

أدرت ظهري لكلِّ أفكاري، وضممتها بقوةٍ لحضني. وددتُ لو يُمكنني فتح صدري ووضعها داخله، علَّ دمي ونبض قلبي يهدِّئها ويُسرِّي عنها.

لم أشعر وقتها سوى بشيء واحدٍ.. أنني موجود.

أنا هنا.. على هذه الأرض. أغمض عينيَّ، وأشربُ عبيرها وأختزنه في صدري، وأستمع للرياح الجارية حولنا تُثني علينَا.

ولم أفتح عيني سوى على صوت تصفيق.. تصفيق التماثيل.

قضينا تلك الأيام في الحديقة، لم نُغادرها. استضافتنا التماثيلُ، كي تأنسَ بنا وبالسحب وطيور اليمام، التي لم تزر الحديقة منذ أزمانٍ بعيدةٍ. مكثنا، حتى غادرت أمها المستشفى، فعاد كلٌّ منّا إلى بيته.

استيقظت مُتأخرًا عن عملي، فأمسكتُ جوَّالي، متوقعًا أنني لم أسمع اتصالها لإيقاظي، كما اعتادت. لم أجد اتصالًا منها!.. فتحت الرسائل، فلم أجد أي رسائل!! انتفضتُ مفزوعًا، وظننتُ أن ذاكرة جوالي قد مُحيت، ولكني وجدتُ كل ما عداها!.. أما هي، فلا صور، لا رسائل، لا رقم!

صفعتُ نفسي حتى أفيق، وقد ظننتُ أنني أحلم. قفزتُ بملابسي تحت الدُّش، علَّ الماء البارد يفيقني.. ولكني ظللت في حلمي، أشعر بكل شيء حولي. أكملتُ باقي أيامي آليًّا.. أذهبُ إلى عملي، وأعودُ لأبحث عن أي شيء يخصها.. أي شيء يثبت أنها هنا.. ولكني لم أجد.

بعد أيامٍ طوالٍ، وجدتُ شقيقة نعمان تنام مستكينةً بجواري. لم أستغرق الوقت في الاندهاش؛ بل استغرقته في سبِّ نفسي، لأنني لم أفكر في الذهاب إلى الحديقة. هرولت إليها، فوجدتها كما عهدتها، بأشجارها القديمة ذات الخريف الدائم، وتماثيلها المتناثرة. ذهبت إلى كل تمثالٍ أسأله عنها، فينظر لي بعينٍ منكسرةٍ ويقول إنه لا يعرفها. أخرج من ضلوعي عبير شعرها ليتشممه، علَّه يتذكر.. فيهزُّ رأسه في أسفٍ أنْ لا، وينظر مكان قلبه، فأجد تجويفًا به شقيقة نعمان!

عشرون تمثالًا، أو أقل أو أزيد، لا أحد منهم يعرف عنها أي شيء..كلهم يحملون

شقائق النعمان مكان قلوبهم.. ولا آحد منهم يذكرها! كِدتُ آفقد عقلي، وآظن أنها لم توجد من قبل، وأنني خلقتها على أوراقي.. لولا عبير شعرها، الذي يسكن ضلوعي، ويذكرني دومًا بها، أثرٌ وحيد يُثبت أنها مرَّت بي يومًا.

لم أجدها حتى الآن. لا أعرف هل أعيش كابوسًا قد أستيقظ منه يومًا فأجدها، أم أنها كانت حلمًا عشته فترة واستيقظت منه! هل أنا من رسمتها على أوراقي، وتخيلت وجودها، أم أنها هي من رسمتني على أوراقها وسجنتني داخل سطورها؟

أرجوك.. إن وجدتها يومًا، أخبرها أنْ تعودَ.. أخبرها أنَّ أسيرَها يريد أن يعود موجودًا كما كان.

كيف تعرفها؟ شمَّ هذا العبير الساكن صدري، فقد يهديك إليها.

سامحني.. لم أكن أعلم أن عبيرها سيفعل فيك هذه الأفاعيل.. إن كنتُ أعلم، لما شممتك إياه ولو عانقت السماء الأرض. ليس لأجلك، ولكن لأجلي.. فهو عبيري وحدي، ليس لغيري حق حبه.

عندما عدتُ إلى الحديقة مرة أخرى، وجدت التماثيل قد زادت واحدًا، مصلوبًا، ينظر إلى السماء ويصرخ. ككل التماثيل، كان يملك شقيقة نعمان. عندما دققت النظر فيه، وجدته أنت، ففهمت ما حدث. ذهبت أنت إلى الحديقة تبحثُ عنها، ورابطت هناك علَّها تعودُ مرةً أخرى، حتى تحجَّرتَ.

سامحني مرةً أخرى، لا أدري إن كانت ضربات المِعول قد آلمتك أم لا؟ ولكنها آلمتني كثيرًا. لا أخفيك سرًّا، أنني قد ضحكت حتى اهتزت السماء والأرض، وأنا أنظر إليكم معشر التماثيل وقد تحولتم إلى أكوامٍ من الحجارة لا تمييز لها. وزادت ضحكاتي وأنا أرى شقائق النعمان تُغادركم هاربةً، وقد تحوَّلت إلى طيورٍ حمراء تفرُّ إلى السماء. حينها فقط اخضرَّت الأشجار.

14-04-2016

مَا لَمْ يَقُلْهُ الشَّاعِرُ

البحرُ بمائهِ الوردي.. ذلك زمنٌ بعيدٌ جدًّا.. كان البحرُ يومًا ورديَّ اللون.. ولكن خطايا البشر الملقاة فيه أصابته بالزرقة.

ضجَّت ساقاه من طول المسير بلا هدفٍ، فجلس على الشاطئ. عبَّأ رئتيْه من الهواء يوديّ الرائحة، ونظر إلى البحر المتقلب الهوى، يُناجيه وينتظر ردَّه، كما رآهم يفعلون في الأغاني والأفلام. أخبروه أن البحر يزيل الهمَّ، يحمله عن قلبك الشائخ، فتخرج منه نظيفًا كيوم ولادتك.. فجلس أمامه يُجرب.

تلمع عيناه وهو يرى الأمواج تنقضُّ عليه كامرأةٍ شبقةٍ، تهدر عاليًا، فيسمع في هديرها صرخات اشتياقها. يفتح ذراعيْه لاستقبالها.. وقبل أن تصلَ إليه، تنحسر عائدةً، كأنما لم تجد ضالتها فيه! يبكي..

حتى الأمواج لا تراني!

ثم يبتسم، إذ رأى أخرى تأتيه ماشيةً الهُوَيْنى، فتتسع ابتسامته ويقول إن الحيية أجمل من الشبقة. يستمعُ إلى خريرها يُخبره أنها ترغبُ في الجلوس معه، فيعتدل في جلسته وينتظر. ولكنها لا تَلبث أن تركضَ عائدةً، لتلحق بسابقتها، فيتعالى صوتُ نحيبه.

يلعن غباءه، الذي أجلسه بعيدًا، وجعل الأمواج تظن أنه لا يرغب فيها. يقترب، حتى تبتلَّ مُؤخرته، فيعرف عندها أنه وصل للقرب المناسب. لا يهتم بالبلل ولا ببرودة الماء، يصفق جزلًا للموجة الزرقاء العارية التي تنقضُّ عليه الآن، وهي تصيحُ فيه أن يستعد.

شهق وسعل وبصق وتمخَّط.. ضربته العارية بشراسة، واندفعت داخل كل فتحات جسده. سمع ضحكتها العالية الخليعة ترنُّ داخل روحه، تخبره كم هي سعيدة. الغبية، سعيدةٌ لأنها كادت تُزهق روحه.

زحف عائدًا لمكانه الأول بعيدًا عن الأمواج يلتقط أنفاسه. رقد على ظهره وتنفَّس بعمق، فسعل وتناثرت قطراتُ الماء من أنفه وفمه. كلما زاد عمقُ تنفسه، زادت قطراتُ الماء المتناثرة.. ألهذا الحدِّ توغلت داخله؟

قالوا إن البحر غدَّار. ولم يُخبرونا إن كان غدره أصيلًا أم مُكتسبًا.

لم قالوا إنك غادرٌ؟ ألأنك مُتقلبُ المزاج؟ ظلموك ولم يفهموا طبيعتك. ظلموك وخدعونا، عندما نصحونا أن نرمي همومَنا إليك ونتطهر منها، فأنت حمَّالُ الهموم. خلطوا بينك وبين الجبال يا بحر.

زرقةُ البحر توشك على الاحمرار. بعد قليلٍ سيسودُّ ويكشفُ عن وجهه المخيف. تعالي أيتها الشبقة.. لا بد أن أحصل على مضاجعةٍ أخرى، قبل أن يغضب أبوك

ويقتلني.

عاد إلى الرمل اللين، وجلس فاتحًا ساقيْه وذراعيْه في انتظار الموجة. أتت موجةٌ حييةٌ، قبَّلت ساقيْه فقط، ثم انحسرت.. فلوى شفتيْه. لم يلتفت للماء والرمل الذي تسلل بين سرواله وساقه ودغدغه مُداعبًا. نفض ساقيْه، وقال:

لستِ أنتِ موجتي المتوحشة.

أحسَّ أنه ليس قريبًا كفاية، فزاد اقترابه.. نام على ظهره، وأغمض عينيْه في انتظار الانقضاض.

التقطت أذناه الشدو/ الهدير، فابتسم وعرف أن متوحشته قد أتت. زاد شبقُه، فصلب نفسه على الرمال ليكونَ فريستَها.

إصبعان من الملح والرمل اخترقا أنفه.. عبرا عينيْه، حتى وصلا إلى مخِّه، واخترقاه. اعتدل مُنتفضًا، وقد كادت روحُه تُفارقه. صرخ يلعن البحر وموجته الشبقة، التي تحصل على متعتها منه بقتله.

يا من تُحب البحر.. أنت ماسوشي مريض.

وقف وصرخ في البحر: "لِم تكرهني؟"..

فضحك البحر، وزفر خبثه في وجهه.

الصخورُ المتناثرةُ هنا وهناك تشاهده، وتضحك في سرِّها عليه، إلا صخرة واحدة، نصفها في الماء ونصفها الآخر على اليابسة، تبدو حزينةً من أجله. ذهب إليها مستغربًا حزن الصخرة ((الصمَّاء)) . دار حولها وهو يتأملها، ويستكشفها بأصابع يده.. ملمسُها خشنٌ كاد أن يجرح يده، لم يرفع يده، واستمرَّ في التواصل معها، حتى نعُم ملمسُها وابتسمت له. جلس تحتها وأسند رأسَه عليها، فمسَّدت شَعره في صمتٍ. أغمض عينيْه، وسالت دموعُه تخبرها عمَّا يعتملُ في صدره. ربتت على كتفه، وبعد برهةٍ قالت:

"لم يفهم البحرَ سواك. كلهم يرونه الحبيب الحاني، يُعطي ولا يأخذُ.. لا أحد يفهم أنه أناني همجي، يقتل أبناءهم وأبناءه، يُرسل أمواجَه لتتكسَّر عليَّ وتأخذ من جسدي؛ فقط ليستمتع. يضحك عليَّ، ويظن أنني أحبه.. وأضحك أنا من قِلةِ حيلتي، التي تمنعني من مغادرة الشاطئ. حتى إخوتي المتناثرين هؤلاء، يرونني أموت ويضحكون.. آه لو أرسل الله مدًّا يُغرقهم، كي يشعروا بما أُعاني، وأشعرُ أنا أنني لست وحدي".

نظر إليها ببقايا دموع تلمعُ في عينيه.. دار حولها مرةً أخرى يُشاهد جسدها المتآكل.. نزل إلى الماء، ولامس تشوهات جسدها المتآكل، فوجدها أنعم من سائر جسدها. صرخ فيها أنها سلبية، ترضى بالقرب ممن يعذبها ويقتلها ببطء، تستمتعُ بما يفعل البحرُ بها وتُمثل دور الحزن. ابتسمت بتعاسةٍ، وقالت له إنه

صغيرٌ لا يفهم، فصفعَها، وسألها عن سرِّ نعومة ملمسِ جسدها المواجه للبحر.

دعته إلى الصعود فوقها، ليرى المشهد كاملًا.. ركلها، ورفض. ركض مُبتعدًا عنها وعن البحر، فصرخت متوسلةً أن يعودَ. توقف، والتفت لها.. فوجدها ترتعشُ.. فرقَّ قلبُه، وعاد.

كان البحرُ قد كشف عن وجههِ الأسود، والسماء ادَّعت عدم الرضا عن هذا الوجه، فانفتحت ثقوبها، وعبرت من خلالها أنوارٌ قادمةٌ من عالم الأرواح القاطن خلفها. نظر للثقوبِ الواسعة، والنور الوهَّاج القادم منها. سأل الصخرة:

لِمَ لا نرى هذا النور في مدينتنا؟

فأخبرته أن السماء قد سدَّت الثقوب في المُدن، بعد أن يئِست من أن يُبصر الناس.. وذكَّرته بما يرى الناس في البحر.

ضحك، ونظر للسماء غير المحايدة.

سددتِ الثقوب عقابًا لنا.. وتركتها للصخور التي تجلس راضية بافتراء البحر عليها.. ماذا فرقت عنَّا؟ هي بشرٌ، ونحن صخور.. هي صخرٌ ونحن بشر.

توهجت أنوارُ الثقوب في السماء، وردَّت:

" لم أسدَّ ثقبًا واحدًا في أي مكان.. بل أنتم من فعل. أنا أيضًا لا أحب البحر مثلكم، ولا أكرهه".

فضحك وسألها عمَّن يتلاحمُ مع البحرِ هناك؟ وأشار إلى الأفق. ضحكت السماءُ، وقالت له إنه صغيرٌ غبي لا يفهم شيئًا.

قلوبنا بائسةٌ كالصخور، تشعرُ بالألم وتصمتُ حبًّا في من يؤلمها.

صوتُ لهاثٍ يتعالى من خلفه.. التفت، ليجد شابًّا يُقاتلُ كي يصعدَ أعلى الصخرة. فكَّر أن يمد يدَه إليه ليساعده؛ ولكنه تراجع وانتظر. صعد الشاب، بعدما بللها بعرقه، ووقف قليلًا يلتقط أنفاسه، ثم عبره، وجلس دون أن يلتفت إليه.. هواءٌ لا يُثير الانتباه هو!

سأل الصخرة عنه، فأخبرته أنه شاعرٌ. تابعه وهو يجلس على الصخرة، شاخصًا إلى البحر بنظرةٍ خاويةٍ. أخرج دفترًا، وخطَّ عليه. اقترب منه، حتى رأى بعض الأبيات المكتوبة، لم يميِّزها. ضيَّق عينيْه ليقرأ، فوجدها تقول:

مُتَفَرِّدٌ بِصَبَابَتِي.. مُتَفَرِّد بِكَآبَتِي.. مُتَفَرِّدٌ بَعَنَائِي

شاكٍ إِلى البَحْرِ اضْطَرابَ خَوَاطِرِي.. فَيُجِيبُنِي بِرِيَاحِهِ الهَوْجَاءِ

نظر إلى الصخرة مشيرًا إلى الشاعر، وصرخ أنه كذَّابٌ، وأن هذه الأبيات قديمة وليست من تأليفه. أجابت بأنها تُجيد قراءة البشر والبحر، تتقن قراءة خطوط الزمن التي يرسمها على ما حولنا.. ولا تُجيد قراءة الخطوط المحبَّرة على الورق.

عاد إلى الشاعر المستمرّ في الكتابة، فوجده قد أضاف:

ثَاوٍ عَلَى صَخْرٍ أَصَمَّ وَلَيْتَ لِي .. قَلْبًا كَهَذِي الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ
يَنْتَابُهَا مَوْجٌ كَمَوْجِ مَكَارِهِي .. وَيَفُتُّهَا كَالسُّقْمِ فِي أَعْضَائِي

أيها الملعون.. تدَّعي أنك تنظمُ الشعر وأنت تسرق من شعر الأقدمين، وتذم في الصخرة التي سمحت لك بالجلوس فوقها!

لم يُجبه الشاعر، ولم يلتفت إليه.. فبكى غيظًا، واحتضن الصخرة يبثُّ إليها غضبَه دون كلامٍ. بللت دموعه الصخرة، فتشققت، وخرجت منها أنةُ ألمٍ خافتةٌ. نظر الشاعرُ مُستغربًا، ثم خطَّ شيئًا في دفتره. اقترب ليرى ما في الدفتر، فوجده يتحدَّث سردًا عن أنين البحر المتجاوب مع شكواه!

ضحك، ولوَّح بذراعيْه مُستغربًا هذا المخبول.. نظر إلى الصخرة يُؤنبها على صمتها، فأنَّت وتشقَّقت. هاج وركله بقدميْه في منتصف ظهره، فهاجت الصخرة معه وتزلزلت.. تعالت الصرخاتُ وهما يسقطان في البحر، عند تجويف الصخرة، ميّتين، وبقايا الصخرة منهارة فوقهما. ذابت حمرةُ دمائهما وشظايا الصخرة في سواد البحر.

تعالت أصواتُ الصرخات، فتجاوبت معها الصخور والرمال. هاجت، وانطلقت ناحية البحر، تنتقمُ لنفسِها ولمن سبقها. سلَّ البحرُ سيوفَه ورماحَه السوداء مدافعًا.. وغضبت السماء، وغلَّقت ثقوب النور، وأرسلت جنودها.

2016 / 04 / 10

Euphoria

دقاتُ عقاربِ الساعة مطارقُ داخل رأسي..

مددتُ يدي أبحث عن المُنبه، دون أن أفتح عينيَّ، كي لا أزيل أثر النوم. جابت يدي الكومودينو دون أن أجده.. لحظاتٌ، وتذكرت أنني كسَّرته أول أمس!

يدي الأخرى حرَّة! فتحت عينيَّ حينها، أبحث عن حبيبتي العاهرة، فوجدتُها قد غادرت الفراش. آثارُ العَرق على الفراش تقول إنها لم تُغادر منذ زمنٍ بعيدٍ. أنظرُ إلى كامل جسدها المطبوع بالعرق على السرير وأضحك. يبدو أن زبونَ اليوم شخصٌ مهم. "مهم" تعني أنها ستعودُ مُثقلة الجيوب، وليس أنها تحبه.. أفهمت؟ ستعود فارغة روحها، التي لا يملأها سواي. أنام على آثار جسدِها عاريًا كما أنا، فيختلطُ عَرَقي بعرَقِها وأضحك. لا يوجد سببٌ يدفعني لفعل ذلك، سوى أنني أريد ذلك.

كم الساعة الآن؟ أنظر إلى نافذة غرفتي، فأجد السماء مظلمة، ثم أتذكر أن سماء النافذة ليست سوى ستارٍ أسود ثقيلٍ، وضعته منذ فترةٍ. الشمسُ تُلهب عينيَّ وتُنغص عليَّ نومي، وحتى شيش النافذة لا يمنعها، بل هو فقط يُخفف من شرّها.

المطارقُ داخل رأسي تزيدُ. تُهاجمني هذه المطارقُ كلما غابت عنّي حبيبتي العاهرة.. نعم هي حبيبتي، ونعم هي عاهرة.. هل تستغرب من هذا؟ احتفظ باستغرابك لنفسك الآن، ربما رويت لك ما يرويك، وربما لا أفعل أبدًا. الأجدر الآن أن تجدَ حلًّا لهذه المطارق.

حلقي بنكهة التراب، ضربُ المطارق لجدار جمجمتي الداخلي نفض عنها التراب وأسقطه فيه، كلما حاولت ابتلاع ريقي بصقته مرةً أخرى.

تحولت إلى قِربةٍ من كثرة ما شربت من ماء، دون أن يذهب طعم التراب. أشعر أن الماء حوَّل التراب إلى طينٍ؛ ربما إن ظل هذا الطينُ فسوف أُلقي ببعض البذور داخل فمي، فتنبت الأزهارُ منه، ويصبح كلامي طيبًا، ويحبني الناس.

لا أريدُ أن يُحبني أحدٌ.. تكفيني حبيبتي، هي فقط مَن تجعلني أصِلُ إلى النشوة.. أو لنكنْ دقيقين ونقول إلى الـ Euphoria فهناك فارقٌ بين الكلمتين، لن أخبرك ما الفارق، ابحث بنفسك.

تنتظر مني أن أخبرك أنها تُشبه "سعاد حسني" أو "ليلى طاهر"؟ هي لا تُشبه أحدًا، وتُشبه كل البنات. إن مرَّت جوارك، لن تلتفت لها، ولن تشعرَ أن أحدًا قد مرَّ. نسمةٌ لا يراها ويشعرُ بها إلَّاي.

تعال معي نذهب إلى البار، فأنا أُحب المكوث فيه. في البداية، كنت أذهب مع أصدقائي، ولا أشرب سوى المشروبات الغازية أو القهوة. كان هذا في البداية

فقط، ثم أصبحتُ جزءًا من البار، كهذه الطاولات المثبتة في الأرض.

سيأتي النادل الآن، ويضع أمامي زجاجة البيرة، وبعد نصف الساعة سوف يأتي ويضع ID 10% . أُحب الخمور خفيفة الكحول، ولكنك لن تُخبر أحدًا بهذا، وإن سألوك ستخبرهم أنني لا أشرب سوى الفودكا والبراندي، فهكذا تكتمل الصورة.

We’re going up upupupupup.

لماذا لا نتزوج أنا وحبيبتي؟

هل جُننت؟ هل يتزوج أحدٌ من عاهرةٍ؟

نعم أحبها، بل أعشقها، ولكني لا أتزوجها، وإن فكرت وعرضتُ عليها رفضت هي. لِمَ نُضحي بحياتنا المثالية هذه، ونذهب بأرجلنا إلى فخ رتابة الزواج؟ سينتهي الطريقُ سريعًا، بكلٍّ منا يبحث عن آخر يتمتع معه ويصل للنشوة دون زواج، ونصبح عندها خائنين! هل أتزوج كي أصبحَ خائنًا؟

غريبٌ هذا.. لم تُذهب المشروبات صوتَ المطارق من رأسي، ولا طعم التراب من فمي! لم تستمر معي هذه الحالة كل هذه الساعات قط، ولم تصمد يومًا أمام الكحول.

لا أعرف..

بل أعرف. ستذهب كل هذه الأعراض عندما تعود حبيبتي. لا؛ أنت مُخطئ، يومٌ واحدٌ فقط خلال الأسبوع هو المُخصص للزبائن، وباقي الأسبوع لي. أو للدقة التي تُحبها، أربعة أيام لي، فأنا لا أقربها قط إلا بعد مرور يومين كاملين على يوم العمل. من المُقرفِ أن تأكل شيئًا بصقه شخصٌ آخر وما زال يحمل لُعابه. أتعامل خلال هذين اليومين كما تتعامل مع زوجتك عندما تحضرها العادة الشهرية. احترسْ وأنت تتكلم عنها؛ لا تنسَ أنها حبيبتي.

Euphoriaaaaaaaaaaaaaaa

لن أخبرك ما حدث بالأمس. كل ما سأخبرك به أن صوت المطارق ونكهة التراب لم تذهبا هذه المرة، حتى عندما احتلبت منها عسلَ لسانها، ونمنا عاريَيْن، جلدي يحتكُّ بجلدها ويُجامعه. تركتها نائمةً وخرجتُ، مشيتُ في الشوارع حتى شعرتُ أن ركبتي حرَّة أكثر من اللازم، ولم أقدر على التحميل عليها. ارتكنت على جدارٍ أقدم مني، وفحصتها، فوجدت أربطتها وغضاريفها قد تفككت. أخرجت المفتاح من جيبي، وأعدت ربطها. تستغرب وجود المفتاح؟ لقد اعتدت مثل هذه الأمور. تترك أنت الأمور المهمةَ، وتركِّز في سفاسفها.

هل تعرف الفارق بين الانسطال والسُّكرِ؟ بين أن تكون دماغك عاليةً وأن تكون غائبةً؟ أووووف، جرِّب إذن، وحاول أن تعرف.

الحشيشُ يسطل ولا يُسكر، أنا لا أشرب الحشيش قط، ولكني حين أحب أن

أنسطل أسمع مقطوعة "حشيش" لإبراهيم معلوف، ينفخُ في الساكس، فيندفع الدخان الأزرق إلى فتحتيْ أنفي، ويقتحم طريقه الذي يعرفه جيدًا إلى خلايا مُخي. أعلو ولا ألتفت إلى النفخة الأخرى التي تقتحمُ حجرات قلبي، تُسكِره حزنًا وتركض مع دمي إلى كل جسدي. أغمضُ عيني، وأنتشي بنشوة الحزن.. ها هي ذي الـ Euphoria مرةً أخرى.. هل صدقت أنها محور حياتنا؟ أنا أعزف ساكس؟ بعد كل ما فعلته في رئتيَّ من سجائر وشيشة، أعتقد أنني سأسعلُ لربع ساعةٍ على الأقل إن فكّرت في النفخ فقط.

لا أشعرُ أنني بخير كلما سمعت "حشيش"، ولا أقدر على الامتناع عن سماعها، ترنُّ داخل رأسي رغمًا عني كهذه المطارق. حياتي كلها تنحصر بينها وبين Euphoria ، لا أسمع الثانية سوى وأنا مع حبيبتي، نتعلم أصول العشق، ونخترع الجديد منها. أسمع الأولى في كل وقتٍ آخر.

مرَّ يوما الراحة بيني وبين حبيبتي.. الآن تخلَّصتْ من كل آثار العمل، وصارتْ لي فقط. سأتركك الآن لنغني أنا وهي. أعرف أن الحديث لم ينتهِ، ولكن وقتك معي انتهى الآن.

Euphoriaaaaaaaaaaaaaaaaaaaaaaaaa

.We’re going up upupupupup

04-08-2016

هِــــي

للرمالِ أفاعيلٌ لا يفهمُها إلا من عاشرَها. تراها ممتدةً مُسترخيةً على مدِّ بصرك.. نشيطةً ما دامت عطشى.. تُنذرك إن أعلنت الرياح الهجوم، أو رأت خيلًا تركضُ نحوك. إن سقيتها ماءً، استرخت ثانيةً ونامت هادئةً. وإن سقيتها دمًا........!

الرمالُ تتناثر حوله.. تحت وطء الرصاصات وقذائف المدافع، رأت أشلاء تتطايرُ حوله، كانت قبل لحظاتٍ رجالًا في زيٍّ عسكري. الطيور المعدنية تحتل السماء، تروح وتغدو مرسلةً تحياتها إليه ورفاقه، فيتناقصُ عددهم كلما زادت التحيات. تتناثرُ الرمالُ متألمةً، تخافُ عليه وتُحاول حمايته. ترسمُ موجاتٍ صوتيةً، تُخبره أن القصفَ ما زال مُستمرًّا، فخيطُ الدم السائل من أذنه، نبَّأها أنه ما عاد يسمعُ

سوى السكوت.

يتقرفصُ في الحفرةِ ليحمي نفسَه، فتضيقُ رئتاه وترفضان استنشاقَ الرمالِ بدلًا من الهواء. تسعلُ حنجرتُه مُعترضةً؛ تدفعه ليرتفعَ بنصفهِ العلوي فوق حافة الحفرة، يرتطم بصرُه بذلك القرصِ المحرَّم في السماء، خلقَه الله ليُنيرها ويُدفئها وحرَّم على البشر النظر إليه. يُغمض عينيْه، فتومضُ الخيالاتُ فوق صفحة السواد، مُبينةً له أن حفرةً من التي تُذيقهم العذابَ قريبةٌ، يتمركزُ فيها جنودُ الهاجانا مع أسلحتهِم الحديثةِ وتدريبِهم المُكثف، يُطلقون رصاصاتهم وقذائفهم فوق رؤوس زملائه.

يعودُ للاختباء داخل الحفرة مُتحسسًا أذنيْه. خيطُ الدم السائل لم يُفزعه؛ فقط تساءل إن كان صممًا مؤقتًا الذي أصابه أم دائمًا. ينظرُ إلى الجسد الذي يجلس مُرخِيًا ظهره إلى جدارها.. كان صديقَه، قبل أن يُزيّنَ جبهتَه ثقبٌ أحمر. تنسكبُ الدموعُ داخله على نار غضبه، فتزيدها اشتعالًا.

"ما الحل يا أخي؟ أولاد الكلب هؤلاء يحبسوننا في هذه القبور، لا نستطيع التحرُّك أو رفع رؤوسنا فوق حافتها، والرمال تُحالفهم وتنهال علينا لتدفننا. ليتنا كنا أرانب، لنحفر أنفاقًا نخرج منها".

يسعلُ، ثم يُعيد النظر إلى الشمس الحمراء في جبين صديقه. يُتابع نظرات عينيْه الجامدتيْن، فيجدها تتجه إلى مجموعة القنابل اليدوية التي سلحوهم بها مؤخرًا. كان قبل استشهاده ينظرُ إليها بولعٍ، ويستكشفها كأنها عروسهُ يوم الزفاف. لم يروها قبلًا إلا مرسومةً على سبورةٍ في المدرسة الحربية، وجوارها كُتِبَ: "تنفجر بعد نزع الفتيل بتسع ثوانٍ"

يبدِّل نظراته بين القنابل وبين وجه صديقه، قائلًا: "ولكن كيف السبيل إلى هذا؟"

يُقلِّب القنبلة في يديْه مُبتسمًا، كأنها قلبُ حبيبته وقد كتب عليه "لك وحدك".

زينب، تلك الحبيبة التي لوَّنت حياته بوجودها.. يضحكُ وهو يتذكَّر مروره كل صباحٍ أمام منزلها، وتلصصه على النافذة التي تقفُ دومًا خلفها لمراقبته في ذهابه وعودته. تهدأ عقارب الساعة عند اقترابه من النافذة، ويتبادل مع زينب بضع كلماتٍ بلغة العيون، التي يُجيدها كل المحبين. يقف الزمن فوقهما، يتابع كل كلماتهما ويفهمها، فهو أيضًا مُحب. كان آخر ما تبادلاه هو توسلها له بألا يذهب للحرب، فردَّ عليها بنظراتٍ مُعاتبةٍ. قال لها: "وكيف أثبتُ أنني رجلٌ أمامك؟"

انهالت الرمالُ على رأسيْهما، هو وزينب.. تأمل وجهها النحاسي وهي تفك ذراعيها المُتعلقتيْن بعنقهِ، وتهزُّ رأسها بالموافقة، فابتسم وهزَّ رأسه مثلها ناظرًا

إلى صديقه وقال: "القنبلة هي الحل. قلب زينب هو ما سيفتك بأولاد الكلب"

كأنها القرص الذي كان ماهرًا في رميه أيام المدرسة الحربية، يُمسك بالقنبلة. يربت على عضلات ذراعه، ويقيسُ المسافة بين حفرته وحفرة أقرب جنود الهاجانا، فيجدُ أنه يقدر على إيصال القنبلة إليها. يُثني ركبتيْه، وينحني بظهره قليلًا، يفرد ذراعيْه خلفه في وضع رمي القرص، ينزع فتيل القنبلة ويدورُ حول نفسه بسرعةٍ، وهو يعد الثواني ليرمي القنبلة بعد الثانية السادسة.

واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة..

ارتجت الأرض حول الحفرة، انتفضت الرمال شبقةً مندفعةً إلى الحفرة، لتغطي أشلاء جسديْن تعلَّم أحدهما أن القنبلة تنفجر بعد تسع ثوانٍ لا خمسة.

سنابك الخيول أثارت الرمال، فتصاعدت غبارًا علا حتى كسا السماء بلونه..

ربض فوق جبل (عينين) يراقب الموقعة الدائرة في الوادي. رفع ناظريْه بوجلٍ إلى جبل (أُحد)، ذلك الوحش الأحمر الرابض مُتحفزًا للانقضاض عليهم، يسأل اللَّه أن يثبِّته كما ثبَّته.

مرابطٌ فوق الجبل يُذَكِّر نفسه وإخوانه بأوامر رسول الله: "ادفعوا الخيل عنَّا بالنبال، ولا تُغادروا مواقعكم حتى آذن لكم"، يُرددها بصوتٍ مرتفعٍ لتطغى على صهيل الخيل وصليل السيوف.

تشتد المعركة، ويشتد إمطارهم للمشركين بالسهام، كل سهم بحصانٍ، كأنهم الطير الأبابيل يرمون حجارةً من سجيل، حتى بدا لهم أن المسلمين قد ظهروا على المشركين، فانتعشت أرواحُهم وعلت تكبيراتُهم.. وانتظروا الغنائم.

أشار أحدهم إلى نساء المشركين وهن يتسلقن جبل (أُحد) ليحتمين به من جحيم المعركة. أسال لعابَهم منظرُ أرجلهن وخلاخيلهن، فصاح بهم من أشار: "الغنيمة.. الغنيمة"، فردَّ آخر: "لا تُخالفوا أوامر رسول الله"، وقال ثالثٌ: "قد أظهرنا الله عليهم فهلموا لنغنم".

كرُّوا على الغنائم كما لم يكرُّوا في الحرب. ووقف هو حائرًا، لا يعرفُ أيلحق بهم ليغنم، أم يقف كما أُمر. لم تدم حيرته طويلًا، وقد أيقن أن الله قد أظهرهم على عدوهم، وليس فيمَا يفعلون عصيانٌ.. لن يعصي كل هؤلاء أوامر النبي.

علق قوسه على كتفه، وانقضَّ مُسابقًا زملاءه ليحصلَ على ما يُعينه على العيش والزواج.

لم يفهموا ما حدث! اختفت الغنائمُ عند وصولهم، وأتوا من خلفٍ. وقع الجيشُ بين فكّي المُشركين، وأعملوا فيهم التقتيل.

ألقى قوسَه، والتقط سيفًا من أحد القتلى.. انقضَّ على المشركين يُقاتلهم بحماسٍ تائبٍ، يضربُ في كل اتجاه ويصرخُ مُستغفرًا. ظلَّ يُقاتل، حتى دوَّت صرخةٌ عظيمةٌ: "قُتل محمد.. قُتل محمد".. صرخ جزعًا وقد رأى فداحة ما أذنبوا.. اندفع في القتال أكثر وهو يصرخُ داخله: "قتلتُ رسول الله، قتلتُ رسول الله"، حتى انقضَّ سيفٌ على عاتقه، فهوى ودمه يسبقه ليرسم لوحة التوبة.

نظر حوله وهو راقدٌ على الأرض.. رأى الأذرع تخاذلت، والسيوفَ سقطت، والرماحَ انكفأت. سمع الصرخات تتعالى، ما بين رافضٍ وحزينٍ وعازمٍ على الهرب، ومقاتلٍ يريد أن يلقى الله على ما لقيه عليه رسوله. أبيضَّت الصورةُ وخفت الصوت، ثم سكت كلُّ ما حوله، وانتشر السواد أمام ناظريْه.

داخل خندقٍ، تحت النيران والحصار، تُراقبهم السماء مُنزعجة، وقد مزَّقها أزيز الرصاصات ودويُّ القذائف والقنابل. تُحاول جمع شتاتها لتسمع ما يدورُ بين القادة و(هي) فيكفونها بذل الجهد وتحمى المناقشة بينهم، لتعلو أصواتُهم على صوت المدافع.

- ارفعوا أيديكم عني، لا تُلبسوني ثوب الكذب لتُخفوا القرح التي صنعت أيديكم في جسدي.
- اخرسي يا عاهرة، أتريدين أن تخرجي إلى الناس عاريةً..
- خلقني الله كي أكونَ عاريةً، لا أتكفن بالكذب، ولا أرتدي الخداع.. مفاتني تغلب قُرح جسدي، تجعل الناس يُدركونني ويُقدرونني حق تقديري.
- لن تخرجي إلا كما أردنا.
- أتقولون إني عاهرة؟ فما أنتم إذن؟

تهبط يدُ أحدهم لترسم خمسة أصابع حمراء على خدها الأبيض. تسقط على الأرض تنزفُ الدم والدموع.

خلف جبل (عينين)، جلس نفرٌ من جيش المسلمين يتناقشون.

- لا تذكروا للناس أننا خالفنا أوامر رسول الله.
- أنكذب على الله؟

- لا نكذب والله، بل نكتم.. أم تُريدون أن يُحمِّلنا الناس دم رسول الله. قولوا أخذونا غيلةً من وراء ظهورنا، ولا تقولوا إننا تكالبنا على الغنائم.

أزَّ طنينُ الرجال خافتًا، ما بين موافقٍ خائفٍ، ورافضٍ أكثر خوفًا. ما قاطعهم سوى صوت عمر بن الخطاب، ينزلُ عليهم كمطرٍ بعد قحطٍ ينفي مقتل رسول الله. نظر الجماعة إلى بعضهم نظرةً تمتزج بالفرحة لنجاة رسول الله، والخوف من أكل الناس لوجوههم لمخالفتهم أوامره. ثم عزموا ألا يتحدثوا في هذا الأمر حتى يروا نهاية هذه المعركة، ومقولة رسول الله.

يرفع الطالب يده طالبًا السؤال، فينظر له الأستاذ مبتسمًا ويومئ له ليقولَ ما يُريد:

- أستاذ، ما سبب هزيمتنا في حرب فلسطين؟
- ألم تُذاكر الدرس جيدًا، سببها الرئيس هو الأسلحة الفاسدة التي زوَّد الملك الفاسد وأعوانه جيشنا الوطني بها.
- ولكن جدي يقول لي إنها لم تكن فاسدةً، بل كانت حديثةً، وأن هزيمتنا كانت بسبب ضعفنا وعدم تدريبنا.

تحوَّل وجه المُدرس إلى قطعة فحمٍ مُلتهبةٍ، تلفحُ الصغير بصرخته: مَن أخبرك بهذا الكلام الفارغ؟

- جدي، لقد كان معهم.
- هل نُمزقُّ كتب التاريخ إذن من أجل شيخ خرف، أوشك على بلوغ المائة عام، يبول على نفسِه، ويحتاج إلى معينٍ كي يعتدلَ في فراشه؟

ألقى بالكتاب في وجه تلميذه، ضحك الرفقاء عليه، ولمعت عينا الولد قهرًا، وتمتم: "ولكن..".

بتر المعلم جملة الصغير برفعه عصاه الخشبية الغليظة..

- افتح يديْك!.. هذا لتتعلم ألا تتبع الأكاذيب التي تُزعزع ثقتنا بجيشٍ هو خير أجناد الأرض.

تهمهم (هي) كالمحمومة، وهي تراهم يرسمون جسدها بالألوان، ويُلبسونها ما يُريدون. ترتفع أصواتُهم بالضحك وهم يرونها مستسلمةً لهم. ضحكاتهم تستفزُّها، فتصرخ فيهم: "لا تُكفنوا جسدي في أثوابكم القذرة، أزيلوا عني قذاراتكم". يُعاجلها أحدُهم بركلةٍ من حذائهِ الثقيل، فتصمت.

امتلأت ساحةُ الشيخ باللون الأبيض المُعطر برائحةٍ محببةٍ. قالوا له إن الضوء ليس هو مصدر الرائحة، ولكنه أصرَّ على رفض كلامهم.

جلس أمام شيخه مبتسمًا وقال: سمعت يا شيخي الجليل شيخًا شابًّا يقول إن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه قد هرب يوم أُحد بعد شائعة مقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه عاد إلى المدينة بعدما بلغه كذب الشائعة.

نظر له الشيخ، وقد التمع في عينيْه غضبٌ لم يؤثِّر على ابتسامته الملتصقة بوجهه دائمًا؛ قال: هذا كذبٌ وافتراءٌ على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ولدي، أنت تلميذٌ نجيبٌ، فلا تستمعْ للمُدعين المُغرضين، الصحابة رضوان الله عليهم نجوم، وهم أطهر من أن يُخطئوا.

فقال الطالب: ولكنه يا شيخي قال إن هذا ورد في تفسير ابن كثير.

فردَّ الشيخ: لم يرد يا ولدي، بل هي إسرائيليات أدخلها أعداء الله، ليزعزعوا صرح إيماننا الصادق.

الطالب: ولكن..

فقاطعه الشيخ: تذكَّر يا ولدي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة جدالهم"، قلْ سمعًا وطاعة لكلام الله ورسوله، ولا تلتفت لكيد أعداء الدين.

فصمت.

امتزج الصهيلُ والصليلُ بالدويِّ والأزيز. صنعوا مع الغبار كائنًا أسطوريًّا ينقضُّ على الجميع لينهشهم.

وقفت (هي) داخل الغرفة المظلمة، عاريةً مُحاطةً بأربعة رجال يسترون وجوههم دون أجسادهم.. واحد منهم يحمل بيديْه ثوبًا ضيقًا يُبرز المفاتن، والثاني ثوبًا واسعًا، والثالث كفنًا، والرابع يُريدها عاريةً كما هي.

حاولت الخروج إلى النور، فانقضَّ عليها الثلاثة، ووقف الرابع أمامها مدافعًا. طرحوه أرضًا، وانهالوا عليه بالركلات. حاولت استغلال تشتت انتباههم عنها وركضت إلى الباب، فما إن لامست مقبضه، حتى شعرت بأن شَعرها يُنزع من رأسها، فصرخت ولم تدرِ بنفسِها إلا وهي ترتطم بالجدار. سقطت جوار جسد الرابع، وانهالوا عليهما ضربًا وركلًا وصفعًا، ثم اعتدلوا بعدما أنهكوها يتجادلون حول أي ثوبٍ ترتدي.

صار الجدال بالأيدي والأرجل بدلًا من الألسن.. نظرت (هي) إلى الباب، الذي صار بعيدًا جدًّا، تبكي وتُحاول رفع رأسها، فلا يرتفع.

صرخ الطالبُ وهو يضع إصبعيْه في أذنيْه، لا يريد أن يسمع مزيج الأصوات المتشاجرة.. أدخل أصبعيْه أكثر، كأنه يُريد أن يخرق طبلتيْ أذنيْه كي يفقد السمع تمامًا. نظر إليهم.. ثم إلى كتبه الراقدة أمامه على الفراش.. يهذي..

أيهم يصدق؟ مَن هي؟ ذات الثوب المُثير الذي يُبرز مفاتن جسدها؟ ذات الثوب الواسع كالخيمة؟ الجثة الملفوفة بالكفن؟ أم العارية؟ لماذا استسلمت وتركتهم يُلبسونها كيف شاءوا؟" وضع رأسه بين ركبتيْه، وغطَّاه بذراعيْه..

انتفض واقفًا.. شدَّ جسدَه على آخره، حتى سمع طقطقة مفاصله..أخذ يهزُّ رأسَه ذات اليمين وذات الشمال ليُخرِس عقله الذي يقتله. لم يحتمل الوقوف طويلًا، سرعان ما سقط على أربعٍ وقد أنهكه التعب، مُعلنًا تفضيله أن يكون على أربع!

رفع رأسه، يتأملهم أمامه وما زالوا يتشاجرون حول أي ثوبٍ ترتدي، وهي تُحاول أن تنقلب على بطنها لتزحف إلى الباب.

"إذن فهي لم تستسلم بعد!"

فكَّر أن يُساعدها ويُحررها، فتناول كُتبه واحدًا واحدًا.. أشعل في أولها النيران.. أحنى ظهره قليلًا وثنى ركبتيْه.. شدَّ ذراعيْه إلى الخلف، وارتكز على قدمٍ واحدةٍ، ودار حول نفسِه، مُلقيًا الكتاب تلو الكتاب في وجوههم ليحرقهم. توقفوا عن شجارهم مُندهشين ينظرون إليه.. شكله كإعصارٍ يُطلق قذائف نارية، أثارت ضحكاتهم عندما ارتطمت بوجوههم دون أن تؤثر فيهم، ثم سقطت على جسدها (هي) فأحرقته.

2014 / 12 / 27

ما يقعُ خلفَ الجدارِ

فرن الجَدَّة...

تكلّم عن أي قضية تشاء.. تكلم حتى عن زوجتك، وأنها لا تتفاعل معك في لحظات العشق.. ستجده قد لفَّ الحكاية، وخلق لها علاقة بفرن جدَّته. كل ما

خلقه الله له علاقة بفرن جدته. حتى جبل السواد الذي يتوسط واحاتنا، يُذكره بلون الفرن.

فوق رمادية الأرض، بالكاد تلمح- إن كنت بعيدًا- شيئًا يتحرك، رمادي الشعر، ليس عن شيب.. رمادي الثياب التي تآكلت، حتى باتت تفضح أكثر مما تستر. يشعر أنه يسير فوق الأرض منذ بداية الخلق.

"خُلِق ليسير".. هكذا كان يتحدث دومًا عن نفسه، كلما قابله عابر سبيل. لا يُفصح عن وجهته، كأنما يخشى أن يُشاركه الناس الذهاب إليها، أو كأنه لم يعُد يعرف أين المنتهى. ترك كلَّ شيء عند قفزه عبر الجدار، حتى هدفه. لم يبق معه سوى رِجْلين لا تكلَّان المسير، وبعضِ أملٍ في المجهول، وعهد!

طاعنٌ في السن أتاهم.. قبل بداية عصر الغروب بعدة أعوام، كان ميلاده. جاء في هودجٍ مضطجعًا على ظهر جمل، مُحاطًا بعمالقةٍ صغيري الرؤوس، وأقزامٍ تحمل أقلامًا تجاوزها طولًا. حاول بعض الناس الاقتراب ولمس الهودج للتبرك، ولكن العمالقة كانوا يضربونهم بأيديهم التي تُشبه أرجلنا، فتطيّرهم بعيدًا كالحشرات؛ لا يوقف طيرانهم إلا ارتطامهم بنخلةٍ هنا أو جدار بيتٍ هناك. ساروا به في الواحة ينشدون:

"يا ابن الشمس نوَّرت ظلامنا.. طلِّعنا من همِّ اليأس.. جِيناك لَتريح أرواحنا.. قل لنا كيف تعود الشمس ".

زوابعُ من الرمال أثارتها القافلة المباركة في دروب الواحة وطرقاتها، والناس خلفها ينشدون ويسعلون. عندما انقشعت، وجدوه جالسًا داخل صندوق زجاجي، موصّلٌ بسماعاتٍ ضخمةٍ عُلّقت على جذوع النخيل. نخيلهم التي يقولون إنها كانت ذات سعفٍ أخضر وبلحٍ مختلفةٍ ألوانه.. يقولون ولم يره أحد.. نخيلهم التي عهدوهـا منذ ولادتهم أصفر جافٌ سعفها، أخضر بلحها.

في البدء كانوا أربعة.

خرجوا من رحمِ الواحة المظلم، بعد أن سمعوا كلام ابن الشمس، ساعين في الأرض بحثًا عن الأرض التي لم تهجرها الشمس. لم يُثنِهم كلامه المُحبط عن مسعاهم. استعانوا عليه بحماس الشباب وحب النور.. حملوا على ظهورهم الحقائب، وضعوا فيها الملابس وشواحن الهواتف واللابتوبات، وقبلها وضعوا حلمهم في الحب والنور. نسوا كلهم- إلا واحدًا- أن يحملوا معهم عصا الـ "selfi"، ليلتقطوا لهم الصور عند الوصول.

قبل عصر الغروب بعصور كان جبل السواد. كأنها القيامة؛ ملّت الأرض شكلها، فقررت تجديده.. تثاءبت وانتفضت، فتشققت قشرتها وانهدَّت الجبال. لم تكن جبالٌ في الواحة، ولم تكن الواحة واحةً. كانت قرية ترقدُ على ضفةِ نهرٍ لا يعرفون اسمه. تناثرت القرى والواحات، لم يعد أحدٌ يعرف أين هو ولا أين جيرانه. قبل أن يستقرُّوا مُطمئنين على حيواتهم، انشقت الأرض، وخرج منها جبل السواد. ظل يرتفعُ ويأكلُ في الواحات، حتى خرق السماء، ولم تعد قمته تُرى.

تنحنح ابنُ الشمس وتمخَّط. سعل وبصق ليجلو صوته. بعينيْن حال لونهما، تختفيان خلف نظارةٍ سُمك عدستيها عقلة إصبع، نظر إليهم، ومطّ شفتيْه كقوسٍ للأسفل.. تحدَّث عن أيامٍ عاشها هو، ولم يعشها غيره. رأى خلالها الشمس رؤيةَ العين، ولمس نورها ودفئها. تمتع في ثنايا أشعتها بجدَّته وحكاياتها، ويوم "الخبيز" المنتظر كأنه عيد. حكى كيف كان ينطلقُ وأقرانه في الشوارع– قُبيل يوم الخبيز- يبحثون في أكوام القمامة عمَّا يصلح كـ "وقيد" للفرن، من أخشابٍ وأوراقٍ، وكيف يعودون بالغنيمة مُنتفخي الصدور للجدة، فتنفح كل منهم قُبلةً على خده، وعملةً نقديةً في راحة يده. وكان النوم يُجافيه ليلتها، خوفًا من أن يقوم متأخرًا ويفوته العُرس.

يقفزُ من فراشه، قبل أن تتثاءب الشمس وتستيقظ. يركض إلى ساحة الفرن الطينية، السوداء بفعل الزمن والسناج.. يميز جوارها سوادًا آخر؛ جدته جالسة على الطوار تصبُّ الماء الساخن في "الماجور" المستكين بين رجليْها. دومًا هي هناك، لم يقم يومًا قبلها، ولم يعرف يومًا هل اسودَّت ملابسُها من الزمن والسناج، كالفرن؟

علت الهمهمات، حاملة بين طياتها تململُ الناس من حكايات جدته التي لا فائدة لها. علا صوتُ أحدهم: "أخبرنا كيف تعود الشمس".

في المُنتهى، كانت جميلة..

تحمل الاسم دون أن تحملَ الصفة بين قومها. تجلس في ظل صخرة، تحيك أثوابًا من قماشٍ قديمٍ، لتستر به نفسها.. وأثوابًا أخرى تضعها فوق بعضها وتحيكها، لتقيها برد الصحراء ليلًا وشمسها نهارًا.

غادرت مدينتها بعد مغادرة الحبيب، الذي لم يستطع فيها عيشًا. ضاق بأهلها الذين ظلوا يُعاملونه طوال سنة كالغريب. سنة ليست بالمدة الطويلة، ولكنها كانت أطول من صبره، فعاد إلى وطنه. تركها دون أن يُودعها.. قالت لنفسها: ربما فعل هذا عقابًا لي على رفضي تقبيله.. سنة ليست كافيةً لأعتاد لون شفتيْه البنفسجي!

في البدء كانوا أربعة..

ساروا يتبعهم الآلافُ من أهل الواحة، يشيعونهم بالدموع والدعوات بالتوفيق. صاح أحدهم: "إن رأيتم الشمس، فتعلّموا كيف تحضرونها إلينا"، وصرخ آخر: "لا تعودوا بدونها".. وبعض همهمات من الدعوات بالتوفيق والعودة ظافرين.

على حافة الواحة.. هناك حيث ينتهي كلُّ أثرٍ للون الحياة، وتبدأ رمال الصحراء الرمادية.. توقفوا، وقد علت أصوات تنفسهم ودقات قلوبهم. نظروا إلى جبل السواد المنتصب أمامهم متحديًا، ثم إلى بعضهم ليستمدوا القوة. ارتجف أحدهم، واقشعرَّ آخر وهو يتخيلُ ما سيحدث في قادم الأيام. زاد ارتجافُ المرتجف، وتقهقر عدة خطوات وهو يهذي.. رمى حقيبته، وركض صوب أمه يحتمي من خوفه بحضنها، مُعلنًا أنه لن يذهب إلى أي مكان. التفت المقشعرُّ خلفه، ينظر إلى نخلةٍ بعينها، كانت له عندها حكاياتٌ، وعهدٌ بأن يُعيدها خضراء.

قال ابن الشمس إنها قرصٌ كرغيف الخبز، مُعلقٌ في السماء، إن نظرت إليه فقدت بصرك. يجلسون في دفء أشعتها شتاءً، ويهربون من سخونتها صيفًا.

كانت السماء وقتها زرقاء، يتغير لونها بتغيُّر موضع الشمس. تطلع من خلف جبل السواد، وتخبرهم أن النهار قد حلَّ.. تُلوّن الرمال بالأصفر، وتضيء النخيل والبيوت.. طلوعها أذان لهم ببدء وقت اللعب في ساحة الواحة. يحتمي الكبار في ظلال الجدران، وينعتون الأطفال بالشياطين.. لا يتحمل هذه الحرارة إلا الشياطين. عندما تختفي خلف السُّحب، يعرفون أن مطرًا آتٍ في الطريق، يغسل آثار الرمال التي علقت بنخيلهم ووجوههم. تُفرغ السُحب ما علق بها من الماء، وتنصرفُ إلى أرضٍ أخرى، فتعود الشمس لتجففَ ما صنعته الأمطار من وحلٍ في بعض أوقات شدتها.

انحنى بالحديث إلى فرن جدَّته، الذي يُوجد في كلّ بيت، ولكن ليس في البيوت كلها كفرنِها، سوى في عامود الدخان الأسود، الذيَ يتصاعدُ متلويًا يبغي الوصول إلى السماء. قال إنه نظر يومًا من أعلى النخلة إلى الواحة، فوجد عددًا لا يُحصى من الأفاعي السوداء، تتلوى صاعدةً إلى السماء، تبغي غزوها!.. ولكنها- السماء- دومًا تصمدُ وتُواجهها بأشعة الشمس، فتتلاشى الأفاعي خائبةً مدحورةً.

كلما مرَّت الشمسُ بالجبل، اهتزَّ فرحًا.. يُحييها برقةٍ، ويطلبُ منها المكوث معه لبعض الوقت. تخفر الشمس بأشعتها، وتركض عابرةً إياه إلى الواحة، وتتركه يُناجيها بأبياتِ غزلٍ كادت تحوّل لونها إلى الأحمر يومًا.

لم ييأس الجبلُ منها. ولم تستسلم هي بسهولةٍ. وافقت ذات يومٍ على المكوث معه عدة دقائق. قالت إن الناس لا يحفلون بها، ولا ينتظرونها.. لن يهتم أحدٌ إن

تأخرت.. لن يُدركوا أنها تأخرت. الدقائق أصبحت ساعةً، فساعتين. وكلما تركته وذهبت لعملها، لم تجد مَن ينتظرها.

أتته ذات يومٍ، ورقدت على قمته. قالت له: "أحبك".. ونامت.

لم يُحاول إيقاظها. فرح لاستئثاره بها، وأقسم ألا يدعها تغادره أبدًا.

سار الثلاثة صامتين، يدخرون كل جهدٍ ليقطعوا الصحراء، حتى يصلوا إلى جدار القبة الدخانية، التي تحوَّطت واحاتهم. قال ابن الشمس إن القبة في البداية كانت بيضاء عندما عبرها، كغلالةٍ ترتديها عروسٌ لتزيدها فتنة. وعندما عاد، وجدها قد تحوَّلت إلى الرمادية. سألوه لِمَ عاد، فلم يُجبهم، واكتفى بهزِّ رأسه.

أخبرهم أنهم إن استطاعوا اجتياز جدار القبة سيرون الشمس وجمال نورها. سألوه لِمَ قال: "إن استطعتم"، فضحك، وقال: "أتظنون الأمرَ سهلًا يا أطفال؟".

طال بهم المسيرُ عدة أيام. وقفوا في سفح الجبل مُعلقةً عيونهم بسواده البرَّاق.. فكَّروا في صعوده، علَّهم يجدون الشمس فوقه. ولكن أحدهم تساءل كيف نصعده وهو شديد الانحدار؟!.. حاول أحدُهم الصعود، فاهتزَّ الجبلُ وألقاه على الرمال، سمعوا قهقهةً عاليةً لم يعرفوا مصدرها.. لا يُمكن أن تكونَ من الجبل؛ هكذا قالوا وهم يركضون حوله ليعبروه. وصلوا إلى جدار القبة.. وعندها عرفوا لِمَ قال: "إن استطعتم"!

قال ابن الشمس إنه كان يهوى الجلوس جوار جدته أمام الفرن؛ ولكنها كانت تنهاه عن ذلك، وتجعله يجلس خلفها، كي لا يلفحه الدخان. كان يستمتعُ بالنظر إلى ضوء النار، الذي يُنير جوف الفرن الأعلى بالبرتقالي. أحب امتزاج البرتقالي بالأسود. ذات يومٍ، أتت الشمس إليهم مُتعَبة، بدرجةٍ مكنتهم من النظر إليها. كانت برتقالية القلب، سوداء الحواف، كفوهة الفرن.. وظلت الحواف السوداء تجورُ على القلب البرتقالي. أصبحت الشمس كقطعةِ فحمٍ توشك على الموت. فزع الجميع، وظلوا يُحدقون فيها عدة أيام، يترقبون أيَّ اللونين سيغلب. ولكن السحب البيضاء حالت دون المعرفة.

في البدء كانوا ثلاثة..

متخشبين أمام الجدار كالأموات، ينظرون إلى الأفاعي والوجوه الدخانية الصارخة التي تخرج منه، تُحاول أن تصل إليهم دون أن تقدر.. ثمة ما يُقيدها في الطرف الآخر خلف الجدار. قتلهم خوفًا صوت الفحيح المختلط بالصراخ. استعاذوا بالله من الشياطين وتقهقروا عائدين بضعة أمتارٍ ليستطيعوا التنفس والتفكير. زاد ارتجاف

أحدهم، حتى علا صوت اصطكاك أسنانه. التفت الاثنان إليه، فوجداه يهزّ رأسَه المرتجف كالمحموم، يلقي حقيبته ويركضُ مُحاولًا اجتياز الجدار. صرخا فيه، وحاولا الركض خلفه؛ ولكن الحقائب الثقيلة منعتهما. ميزا صوته في صرخةٍ متألمةٍ لحظة اختراقه للجدار، فانهدَّا على ركبهما يبكيان.

تمالكا نفسيْهما بعد فترةٍ غير معلومةٍ.. وقف أولهما ينظر إلى الجدار بنظراتٍ ميتةٍ، فسأله الثاني "ماذا تنتوي؟"، فأجاب: "إن عُدنا دون الشمس ذُقنا الذل والهوان حتى الممات. سنجد الجميع ما بين ساخطٍ علينا، ومتشفٍّ فينا، لأننا كرهنا الواحة.."

"هل جُننت؟ ألم ترَ ما حدث؟"

"لا نعلم ما حدث. فقط سمعنا صرخةً، قد تكون خوفًا ليس أكثر"

"إن كنتَ مُصرًا، فهذا فراقُ بيني وبينك"

تسارعت أنفاس الأول، ورمى حقيبته قائلًا: "عليَّ عهدٌ لا معنى للحياة إن لم أوفِ به".. وانطلق يشق الجدار صارخًا.

في المنتهى كانت جميلة..

لم يُخطئ من سمَّاها. تجلسُ في شرفة بيتها، الذي بنته في الخلاء، بعدما ازداد قرفُها من المدينة وزهدت الحياة فيها. تعبثُ بهاتفها، وتنظر إلى الأفق البعيد منتظرةً ما أخبرتها به النجومُ.. الحبيبُ الذي سيأتي من هناك، ليُكمِّل الروح، ويُعطِّر الحياة. سنواتٌ مرَّت في انتظاره، دون أن تملَّ، أو تهتز ثقتها في نجومِها التي تُخبرها الآن أن اللقاء قريب.

وقتها مقسَّمٌ ما بين مرآتها وشرفتها. تتزين كل يومٍ، ثم تخرج للشرفة مع مغيب الشمس.. حتى تحضر النجوم، فتلهي نفسَها بالحديث معها. تُغادر إلى فراشِها بمجرد حضور الشمس، التي لا تُحبها.

في البدء كان وحده..

عاهد جدَّته ألا يعود إلا بالشمس فوق ظهره. جهَّز راحلته وزاده، وانطلق يعبر الصحراء البيضاء إلى المجهول. سار عابرًا الجبل، حتى وصل إلى الجدار الأبيض. لم يجسر على العبور، حتى دعاه الجدار. حمل إليه نسيمًا طيب الرائحة، ذكَّره بأيام شروق الشمس بعد المطر. عبر الجدار في قفزةٍ واحدةٍ، وصرخ متألمًا عندما مسَّت أشعة الشمس جلده. لا يعلم إن كان غيابُها جعلها متوحشةً، أم أنه من صار ضعيفًا بغيابِها.. هل هي شمسهم، أم شمسٌ أخرى لم يعتد نورها؟

ربط عدة أيام في أحد الكهوف، يخرج كل يومٍ للشمس قليلًا، حتى تحوَّلت

صفعاتها لوجهه إلى مداعبات. نظر خلفه إلى الجدار البعيد، فوجدها قبةً بيضاء تُغطى الواحِات، لا يخترقها إلا جبل السواد. عزم على أن يستمرَّ في رحلته، حتى يعرفَ كيف يزيلها.

دخل إلى المدينة ليلًا وأهلها نيام.. وعندما أيقظتهم الشمس، أوجسوا من بشرته الرمادية المائلة للأزرق، وشفتيه البنفسجيتيْن. أخبرهم أنه أتى من بلاد القيَّة، فلم يُعيروه انتباهًا. نفروا منه، وأشاحوا عنه بوجوههم.. إلا واحدةً، لم تنل حظًا من الجمال، رقَّ قلبها له، وعرضت عليه المساعدة.

أنهى ابنُ الشمس حكاياته.. انفضَّ الجمع من حوله، يُهمهمون بالسباب لهذا الخرف، ولجدَّته وفرنِها. أتوا به، وتحمَّلوا نفقات سفره وحرَّاسه الذين يأكلون كالنار، ليُعيد إليهم الشمس.. فلم يجدوا عنده غير فرن الجدة "أحرقها الله وإياه في نار جهنم".

16-07-2016

مرآةٌ غيرُ مستويةٍ

ما لها الأوتارُ جافةً، لا تستجيبُ لأناملي؟

أناملي عاشقةٌ.. تُداعب الأوتار مداعبة مشتاقٍ عاد بعد فراق أعوام.

أأناملي هي التي تخدعني ولم تعد عاشقة؟!

لا أنتبه لقدميَّ، اللتين ضربتا أرض الشارع الترابي الذي لم أدخله منذ سنواتٍ، بعد يوم عملٍ هو الأسوأ. لم أرغب في أن تراني زوجتي وابنتي بهذا الوجه العبوس.. أعطى عقلي الأوامر لقدميَّ، دون أن يستأذنني.

دخلتُ من الباب الضيق، واستنشقت رائحة حبيبتي التي تُخلق هنا كل يوم.

شاهدتُ مراحل تكوينها الأولية، والصانع يُسوي وجهها بالفأرة الكهربية، قبل أن يركِّبها على ظهرها المستلقي تحت قدميْه مُنتظرًا الكمال.

كدت أجلسُ على الأرض المُغطاة بنشارة الخشب لأرى استواء الخلق.. ولكن نافذة روحي استقبلت نداءً كاد القلب ينساه، قادمًا من الغرفة الداخلية.

تتبعتُ نداءات الحبيب إلى غرفة الأسطى، ظانًّا أنها صادرة منه وقد دخل في لحظة تجلٍّ، من تلك النادرة التي يغيبُ فيها عن عالمنا، وتتجمَّع روحه بين أنامله وأوتاره، فتسكن الطيور لتستمتع بأنَّات عوده. أنصتُ.. هناك اختلاف، لكن ربما قسَّى الزمنُ روحَه، فنفرت الأوتار وانكمشت على نفسِها، تنعى عشقًا لم يعد يُبادلها إياه.

قدماي قادتاني إلى الغرفةِ الداخلية، تُحركاني ولست أنا من يُحركهما. رأيتُ من فتحة الباب شابًّا آخر هو من يعزف!.. أحد زبائن الأسطى يجرب عودًا جديدًا قبل أن يشتريه. ووجدت الأسطى وقد صغر عشرين عامًا عن آخر مرة رأيته. بارقة من التركيز ذكرتني بأنه الأسطى الصغير، ابن الأسطى الكبير. شرَّبه والده صنعته وفنَّه، فشربها وسكِر، ثم تنازل له الأب عن عرش المكان، مفضِّلًا قضاء باقي عمره مع عوده/ صديقه الوحيد.

تذكرني قبل أن أذكره بنفسي.. وقد كُنتُ أول مُعلم له. اللقاء بعد فراقٍ طويل عالي الحرارة.. لكنَّه يُسخِنك ويفقد حرارته في لحظاتٍ، فتقشعرُّ بردًا. عرَّفنا أنا والعازف الآخر، واصفًا إياي بـ"ساحر العود"، فابتسمت خجلًا، وخوفًا من كيد هذا الساحر الذي كنته يومًا.

جلستُ؛ فأعطاني الأسطى عوده الخاص لأجربه. أخبرته أنني لم أعزف منذ عشر سنواتٍ، فظل مادًّا يده بالعود وقد اتسعت ابتسامته المُشجعة.

((ما إن مدَّ الأُسطى يده بي إليك، حتى تمنيت أن أعود إلى جذع الشجرة الذي خرجت منه. كدتُ أقفز من يده إلى الأرض فأتهشم.. ولكن نظرات عينيك هي من منعتني، فتركتُ نفسي أصل إلى يديك، علَّك توقدُ العشق القديم))

أصابتني قشعريرة من ملامسة العود. كان ينظر إليَّ ويُؤنبني على تركه كل هذه السنوات. ربَّتُّ على ظهره، تربيتتي تشرح له حالي، لكن كاد ينزلقُ من يدي.. أو أنه قد نفر مني!

لم أتمالك نفسي عندها، فأرحت رأسي على ظهره، وبكيت.. أو هكذا تخيلت.

تركتُ الريشة، وبدأت أحاوره بأناملي؛علَّه يرضى. تأبَّى عليَّ، فلم أيأس، وحاولتُ مرةً ومراتٍ، وكأنني أستميل امرأةً حرونًا، حتى حنَّ أخيرًا، وبدأ يُبادلني النغم.

قال لي العازفُ: "ضربة فنان". ضحكت، وقلت: "بل هي ضربة عاشق من منازلهم. منازل أهل العشق لا ينزلها الضاربون".

ابتسم، ورفع عوده طالبًا أن نعزف معًا آي لحنٍ، فابتسمت مُشيرًا للعود المتكئ على حِجري، وقلت له: "لم يرض عني بعد حتى أعزف".. ضحك وأصرَّ: "لنجرب!".

((حين مسَّتني أناملك، لم أتمالك نفسي.. سرت بي القشعريرة وأنا أتذكر ماضيًا بعيدًا لم نفترق فيه قط. لم تشعر برعشتي وأنت الذي كنت تشعر حتى بأنفاسي. سامحني؛ غضبت عليك وجعلتُ عارفًا أقل منك، بعودٍ أقل منيّ ينتصر عليك. خانتني عيناك، وكذبت عليَّ.. أوهمتني أن عشقك جمرٌ مُشتعل تحت الرماد. أولا تسامحني؛ فالسماح بين المحبين فقط))

مطأطئ الرأس ثقيل القدميْن غادرت الورشة. لن أنسَى ما حييتُ نظرات العود لي، بعدما استطاع العازف أن يتفوق عليَّ في أربعة ألحان من أربعة، قبل أن ينظر لي ويقول: "لا بأس بك، تحتاج فقط للتمرين". لو جاءني أيام سحري، لأكلتُ عشرين مثله بضربة وترٍ واحدةٍ. لم يصمد أمامي عازفٌ إلا الأسطى الكبير. رفعتُ نظري إلى تلميذي، فضربني بنظراتِ حسرةٍ أطاحت بي، فطردت نفسي قبل أن يطردني العود.

ما كل هذه الأعواد التي ترقد على ظهور الناس؟ ساعة أو يزيد من المُسير، لم أرَ خلالها سوى أعواد يحملها السائرون، وأخرى تبرزُ من نوافذ السيارات. هل تحوَّلت البلدة كلها لعازفي عود، أم وصلت به الخيانة أن يرقد على ظهر الرائح والغادي؟

يرنُّ في أذنيَّ لحن "القلب يعشق كل جميل"؛ ذلك الذي كان بداية قصة عشقٍ طالت أعوامًا بيني وبين العود، حتى فرَّقت بيننا الظروفُ ولقمة العيش، في بلدٍ لا يرحم ولن يُرحم. ارتديتُ سماعات الأذن، وبحثتُ عن تلك الضجة التي أكرهها على الإنترنت، لأطرد اللحن. ولكنه أبى إلا أن يعلو كلما رفعت صوت المهرجان. أشغل مهرجانًا آخر أسوأ من سابقه، علَّ اللحن يشمئزُّ مني ويُغادر. أصرخ، وأضع أصابعي في أذني، فلا يهدأ. أركضُ عائدًا إلى الورشة، كي أركع أمامه طالبًا الغفران، فيوقفني اتصالٌ من ابنتي ذات الأعوام الخمسة، تسألني عن سرّ تأخري في العودة. أضحك، وينتعشُ قلبي، وقد أدركتُ أن السؤال على لسان أمها، فأقفز في أول سيارة أجرة تُقابلني لأعود لمنزلي، لنعزف أنا وزوجتي وابنتي على أوتار بيتنا معًا.

27-07-2016